

الغربة والاعتراب دراسة في شعر ابن دراج الأندلسي

د . محمد شوابكة *

جامعة مؤتة

Abstract

This study (1) discusses the phenomenon of alienation in the poetry of the Andalusian Ibn Darraj in light of social psychology, (2) relates it to the political and economic conditions reflecting the range of interaction between the poet's personal experience and that of the Andalusian Arabs, and (3) provides a comprehensive image of Ibn Darraj's feelings both during his cheerful life under the Amirds régime (372 - 399 AH) and chaotic one during the Civil War and the collapse of the Umayyads in Spain (399 - 421 AH).

The study reveals that the poet's alienation lies in his ambition to earn financial and psychological stability and the frustration he sustained in this respect. The Poet expresses strong feelings about suffering from poverty, vagrancy, fear and anxiety, and he emphasizes the human need for justice, security, and satisfaction, showing thus aspects of alienation like normlessness or anomic, powerlessness detachment, self - estrangement, etc.

Ibn Darraj's poetry, therefore, is a live example of the unstable life of the Andalusian Arabs in particular, and a clear evidence on how political and economic conditions may lead to alienation in general.

ملخص

يعالج هذا البحث ظاهرة الاعتراب في شعر ابن دراج القسطلبي الأندلسي في ضوء علم النفس الاجتماعي ، ويربط هذه الظاهرة بالظروف السياسية والاقتصادية التي توضح مدى التفاعل بين التجربة الذاتية عند الشاعر والتجربة الجماعية عند عرب الأندلس ، و يقدم صورة دقيقة شاملة لما كان يعتلج في نفس الشاعر سواء أكان ذلك في حياته الرعدة أيام العامر بين (٣٧٤هـ - ٣٩٩هـ) أم في حياته المضطربة في ظل الفتنة البربرية وانهايار الخلافة الأموية (٣٩٩ - ٤٢١هـ).

لقد كشف هذا البحث عن أن اعتراب ابن دراج يكمن في طموحه الى الاستقرار المادي والنفسي وإخفاقه في تحقيق هذا الطموح . لقد أسرف الشاعر في الحديث عما يعاناه من تشرد وحرمان وخوف وقلق ، وألح على حاجة الانسان إلى العدل والكفاية والأمن ، فعبّر عن ذلك عن اختلال الموازين وانقلاب المعايير والشعور بالعجز والعزلة والاعتراب عن النفس ... فكان شعره نموذجاً معبراً عن ضياع الانسان العربي في الأندلس في فترة الفتنة ، وشاهداً بيّناً على أثر الأحوال السياسية والاقتصادية في خلق الاعتراب بشكل عام .

مدخل :

تعددت الدراسات الحديثة التي تعالج ظاهرة الاعتراب ، وكأنَّ هذه الظاهرة جديدة في حياة الإنسان أو أنَّها من خصوصيات العصر الحديث ، والحقيقة أنَّ عدم توافر مصطلح المفاهيم الحديثة في التراث لا يعني البتَّة أنَّ هذه المفاهيم لم تكن متوافرة ، وبخاصة إذا كانت هذه المفاهيم — كما هو الحال في ظاهرة الاعتراب — تتصل بمشاعر الإنسان وإدراكه لنفسه والآخرين ، ولذلك فإنَّ الاستفادة من الدراسات العلمية في تحديد معاني هذه الظاهرة ، ومحاولة فهم النصوص الأدبية القديمة في ضوء هذه الدراسات أمر مسوغ ، شريطة ألاَّ يحاول الباحث الحديث إخضاع النصوص القديمة — قسراً — للمفاهيم الحديثة .

لقد تنوعت مفاهيم الاعتراب وتعددت مظاهره حتى بات بعض هذه المفاهيم يعاني من الغموض . غير أنَّ غالبية الدراسات تتفق على أنَّ الاعتراب يشير بصفة عامة إلى انعدام السيطرة أو اللاقدرة والانعزال والاعتراب عن النفس واللامعيارية ... كما تحدّث هذه الدراسات عمّا يصاحب مشاعر الغربة والاعتراب من مظاهر القلق ، والأرق ، والاكتئاب ، والضيق ، والاضطراب والشعور بالوحدة إلى غير ذلك (١) .

(١) حول مفاهيم الاعتراب ومظاهره : انظر العدد الخاص في مجلة عالم الفكر ، وزارة الاعلام ، الكويت ، المجلد العاشر (١٩٧٩) ، العدد الأول : د . قيس النوري ، الاعتراب — اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً ، ص ١٣ - ٤٠ . د . حبيب الشاروني ، الاعتراب في الذات ، ص ٦٩ - ٨٢ .

وانظر : حلیم بركات ، الاعتراب والثورة في الحياة العربية ، مواقف ، عدد ٥ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٠ - ٢٣ .
د . السيد علي شتا ، نظرية الاعتراب من منظور علم الاجتماع ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع الرياض ، ١٩٨٤ ، ص ٢١٦ - ٢٢٤ ومواضع أخرى .

د . محمود رجب ، الاعتراب ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٧٨ ، ص ٣٤ - ٤٨ .
حسن سعد السيد ، الاعتراب في الدراما المصرية المعاصرة بين النظرية والتطبيق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ١٠ - ١٤ .

د . سحبان خليفات ، فكرة الاعتراب في الفكر العربي ، أفكار (الأردن) عدد ٢٤ ، ١٩٧٤ ، ص ٤٠ - ٤٣ .

George Lichtheim, Alienation, in International Encyclopedia of the Social Sciences (New York: The Macmillan Company and the Free Press, 1968), pp. 264 - 268. G. DunCan Mitchell, ed., A Dictionary of Sociology. (London: Routledge and Kegan Paul, 1909), pp. 4 - 7. Robert A. Nisbet, The Social Bond, (New York: Alfred A. Knopf, Inc, 1970), pp. 264 - 275.

والدارس للشعر العربي يجد فيه صدى لكثير من هذه المفاهيم والمظاهر. وتحاول هذه الدراسة التعرف إلى مظاهر الغربة والاعتراب وعواملهما عند الشاعر الأندلسي أبي عمر أحمد ابن دراج القسطلّي (٣٤٧ - ٤٢١) ، مستفيدة من بعض الدراسات الحديثة في تفسير مفاهيم الاعتراب . إنّ دراسة هذه الظاهرة عند ابن دراج تلقي الضوء على أثر الفتنة البربرية في الشعر الأندلسي المواكب لها بشكل خاص ، وتساهم في فهم أثر الأحوال السياسية والاقتصادية في خلق مشاعر الغربة أو تعميقها بشكل عام .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ شعر ابن دراج لا يمكن أن يُقرأ بمعزل عن الإطار التاريخي ما يزيد عن تسع وثلاثين سنة من حياته ، ذلك أنّ الشاعر تأثر بالظروف المحيطة وعكسها ؛ ففضلاً عن تعبير ابن دراج عن الأحاسيس الجماعية من خلال حديثه عن مأساته بداية القرن الخامس الهجري ، فإنّ شعره يعدّ سجلاً حافلاً لكثير من الأحداث التاريخية ، ولذلك كان لابدّ — في دراسة موضوع الغربة والاعتراب في شعر ابن دراج — من الإشارة أحياناً إلى بعض الحقائق والأحداث التاريخية التي تلقي الضوء على عوامل هذه الظاهرة ، كما توضّح مدى التفاعل بين التجربة الذاتية عند الشاعر وبين التجربة الجماعية عند عرب الأندلس الذين تأثروا بالظروف الموضوعية في تلك الفترة . ونظراً لتأثير الأحداث على ابن دراج فإنّ هذا البحث سيناقش ظاهرة الغربة والاعتراب في شعر ابن دراج إبان الفتنة البربرية مركزاً الاهتمام في قضيتين :

١ — الغربة والاعتراب منذ بداية الفتنة وحتى رحيل الشاعر إلى سرقسطة سنة

١٤٠٨ هـ .

٢ — الاستقرار النسبي والعجز عن الإفلات من الماضي (حياة الشاعر في ظلّ

التجبيّين) .

وقبل الشروع في مناقشة هاتين القضيتين ، فإنّ الباحث يرى أنّه من المفيد — استكمالاً للصورة — التمهيد بلمحة موجزة عن بعض مشاعر القلق والوحدة التي كان يحسّها الشاعر أثناء حياته في ظلّ دولة بني عامر :

قضى ابن درّاج من حياته نحو خمس وثلاثين سنة قبل أن يتفياً ظل المنصور بن أبي عامر في قرطبة. ورغم ما قيل عن سعة العيش التي كان الشاعر يتمتع بها في بلده قبل قدومه إلى قُرطبة (٢) سنة ٣٨٢هـ، فإنّه كان يطمح إلى الانخراط في سلك كبار الأدباء في العاصمة، حيث تتوافر عوامل الشهرة والمجد. وقد حقّق الشاعر في ظلّ العامرين أهدافه، فانتظم في سلك الشعراء الذين احتوهم ديوان المنصور، بل وتسّم الذروة في مجّاليسه.

والغالبية العظمى من شعر ابن درّاج في هذه المرحلة من حياته، تعكس درجة كبيرة من الاستقرار والكفاية النفسية والاقتصادية، حيث ينعم الشاعر بالمجد والأمن على نفسه وعائلته، وحيث يكرّس الشاعر نفسه مسجّلاً بطولات المنصور مواكباً غزواته.. فيكون محور هذا الشعر هو الإعجاب بشخصية القائد. غير أننا نظفر— في هذه المرحلة — ببعض المقطوعات والأبيات الشعرية التي تعكس مشاعر القلق والحزن وعدم الرضى. وتبرز المقطوعات التي نظّمها الشاعر بدايات إقامته في قرطبة أحاسيس غربة خافته تعود إلى سببين: بعد الشاعر عن عائلته، وهجوم الشعراء عليه.

ويتضح من القصيدة الأولى (الهائية) التي نظمها ابن درّاج بين يدي المنصور بن أبي عامر بعض مشاعر الحزن والأسى لفراق زوجته وابنته، كما يتضح خوف الشاعر على هذه العائلة التي ترك رحيله عنها فراغاً لا يسده «جفاء الأقربين». ويتعمّق الشاعر في عرض مشهد الفراق: فهذه زوجته تبكي، بدمع كالجمان، وهذه ابنة الثمانية تتعلق بأبيها وتطوق عنقه بذراعيها، فتخفق أحشاؤها ألماً لفراق والدها:

وَرَبَّهُ خِذْرُ كَالْجُمَانِ دُمُوعُهَا	عَزِيزٌ عَلَى قَلْبِي شَطُوطُ نَوَاهَا
وَبُسْتُ ثَمَانٍ مَا يَزَالُ يَرُوعُنِي	عَلَى النَّايِ تَذْكَارِي خُفُوقَ حَشَاهَا
وَمَوْقَفَهَا وَالْبَيْتُ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ	مَنْوُطاً بِحَبْلِي عَاتِقِي يَدَاهَا

(٢) لا تلقى المصادر الضوء على الفترة الأولى من حياة ابن درّاج، بل تبدأ منذ ظهوره في بلاط المنصور سنة ٣٨٢هـ، والقائه بعض القصائد بين يديه. غير أنّ الدكتور محمود مكي يستنتج— في مقدمته القيمة عن الشاعر وعصره— أنّ ابن درّاج عاش في هدوء واكتفاء اقتصادي. ويربط المحقّق ذلك مع الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي في عهدي الناصر والمستنصر. ديوان ابن درّاج، تحقيق الدكتور محمود مكي، ط ١، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ١٣٨١هـ—١٩٦١م، المقدمة ص ٣٢—٣٥.

تشكى جفء الأقربين إذا النوى ترامت برحلي في البلاد فتأها (٣)

وكلما تعرض ابن دراج لمضايقة تذكر عائلته ، وألح على تصوير مناظر الفراق . وكأنه بذلك يريد أن يستمد من ضعفه قوة ، وأن يستثير نفسه ويحثها على التحدي ، فعندما طلب منه معارضة رائية أبي نواس في مدح الخصيب ، نظم الشاعر مطولة تعرض فيها إلى ما يعانیه من خطوب وهموم ، منتقلا إلى الحديث عن مشهد وداع لعائلته ، ثم مادحاً للمنصور . ويغلب عن الظن أن لجوء الشاعر إلى الحديث عن الخطوب في هذه الفترة المبكرة من إقامته في قرطبة ، يشير إلى أنه لم يحتل المركز الذي يحلم به في ظل المنصور ، وأن طموحاته لم تحقق بما يكون تعويضا عن آلام الفراق . في هذه القصيدة يرسم لنا الشاعر لوحة مؤثرة : يقف مودعا لزوجته وولده الرضيع ، ويتحدث إلى زوجته مبرراً رحيله ، ولكنها ترفض وتناشده بعهد المودة والهوى أن يبقى فيهمو صبر الشاعر ، ويلتفت إلى ولده الرضيع في المهد ؛ هذا الطفل الشاهد على ما يجري بين الأب والأم ، يعيش لحظات الحزن التي تسيطر على والديه ويعيها ، ولكنه يعجز عن الإفصاح . ويفيض الشاعر في الحديث عن ولده ومنزلته في قلبه ... ورغم ذلك كله ، فإنه يقرر الرحيل ملتبيا نداء العزيمة ، ويأتي الفراق فيطير الشاعر معه بجناح الشوق ، وتكاد جوانح الزوجة أن تطير فرعا .

ولما تدانت للوداع وقد هفا	بصبري منها أنه وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى	وفي المهد مبغوم النداء صغير
عيي بمرجوع الخطاب ولفظه	بموقع أهواء النفوس خبير
تبوا ممنوع القلوب ومهدت	له أذرع مخفوفة ونحور
فكل مفداة الشرائب مرضع	وكل محياة المحاسن ظير
عصيت شفيع النفس فيه وقادني	رواح لستدأب السرى وبكور
وطار جناح الشوق بي وهفت بها	جوانح من دعر الفراق تطير (٤)

(٣) ينص جامع الديوان (الديوان ص ١٠) على أن هذه القصيدة الهائية هي أول ما أنشده الشاعر بين يدي المنصور والأبيات في الديوان ص ١٣ - ١٤ .

(٤) الديوان ، ٢٩٨ - ٢٩٩ .

وأما السبب الثاني لشعور ابن دراج بالقلق وعدم الرضى حين دخوله قرطبة ، فهو تشكيك بعض الشعراء بقدرة الشاعر الفنية ، واتهامه بالسرقة والانتحال ، فلم تنجح القصيدة الأولى في تثبيت مكانة الشاعر عند المنصور^(٥) ، فنظم قصيدة أخرى أشار فيها إلى الامتحان الذي عُقد له ، وعبر عما يشعر به من ألم واستياء :

من بَعْدَ ما أَضْرَمَ الوائِشُونَ جَاحِمَةً كانت ضلوعي وأحشائي لها حَطَبًا
وَدَسَّسُوا لي في مَثْنَى حَبَائِلِهِمْ شُعْعا بَتُّ بها حَرَّانَ مَكْتَبًا

ولم يكن أمام ابن دراج إلا اثبات كفاءته الفنية والدفاع عنها ، فهي السبيل الوحيد إلى ديوان المنصور ، فيمضي متحدًا بثقة عن قدراته الفنية شعراً ونثراً ، وينزه المنصور عن أن يُمدح بقصائد منتحلة ، ويشير إلى أن الشعراء حسدوه لأنهم غير قادرين على الرقي إلى مستوى فنه ، فخياله واسع ، ولا يمكن أن يظماً إلى خيال «ضخضاح» .. ومهما يكن فإذا كان مُتَّهما فقد اتَّهم قبله الفحول :

حَتَّى هُزِرْتُ فَلَا زَنْدُ الْقَرِيضِ كَبَا فَيَمَّا لَدَيَّ وَلَا سَيْفُ الْبَدِيهِ نَبَا

...

حَاشَى لِقَدْرِكَ أَنْ أَرْجِي الثَّنَاءَ لَهُ دَعَوَى وَأُهْدِي إِلَيْهِ الدُّرَّ مُغْتَصَبًا
لِكَيْتَها هَمَمٌ أَنْشَأَتْهَا نِعَمًا تَشَاكَهَا بِنَفِيسِ الْقَدْرِ فَاضْطَحَبًا
وَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أَعْيَتْ بِدَائِعُهُ فَاسْتَدْعَيْتِ الْقَوْلَ مِمَّنْ ظَنَّ أَوْ حَسِبَا
أَنَّ «أَمْرًا الْقَيْسِ» فِي بَعْضٍ لَمُتَّهِمْ وَفِي يَدَيْهِ لَوَاءُ الشَّعْرِ «إِنْ رَكِبَا»
وَالشَّعْرُ قَدْ أَسَرَ «الْأَعَشَى» وَقَيَّدهُ خُبْرًا وَقَدْ قِيلَ «وَالْأَعَشَى إِذَا شَرَبَا»
وَكَيْفَ أَظْمَأْ — وَبَحْرِي زَاخِرُ فِطْنًا — إِلَى خِيَالٍ مِنَ الضَّخْضَاحِ قَدْ نَضَبَا ؟

(٥) حول هذه القضية انظر رواية أبي عبد الله الحميدي (٤٨٨ هـ) في جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، ط ٢ ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

إِنْ شِئْتَ أَمْلَى بَدِيعَ الشَّعْرِ أَوْ كَتَبَا أَوْ شِئْتَ خَاطَبَ بِالْمَنْشُورِ أَوْ خَطَبَا (٦)
وكما أشرنا يعيش ابن دراج بعد ذلك ذروة المجد في ظل المنصور حتى تولى عبد الملك
المظفر . ويبدو أن الشاعر استبعد فترة من بلاط المظفر ، مما جعله يشعر بالوحدة والقلق .
وبدلاً من اللجوء إلى قدراته الفنية ، أخذ يشير إلى وفائه للمظفر وللدولة ، فهذا هو يخاطب
عبد الملك متحدثاً عن «أسر الاسى» والعزلة والهَم والقلق ...

فَقَتَلْتُ هَمًّا دُقْتُ حَدَّ سَيْوْفِهِ بَسِيفٍ إِنْ عَامَ بِهَا اسْتَحْيَيْتَنِي
فَفِدَاؤُكَ الْأَمْلَاكِ يَوْمَ سَمِعْتَنِي لَهْفَانٍ فِي أَسْرِ الْأَسَى فَفَدَيْتَنِي
وَسُقَيْتُ غَيْثَ النَّصْرِ حِينَ بَصُرْتُ بِي ظَمَانٍ مَلْتَهَبِ الْحَشَا فَسَقَيْتَنِي
أَوَاكِ ظِلُّ اللَّهِ فِي سُلْطَانِهِ وَنَعِيمِهِ بِجَزَاءٍ مَا أَوْ يَتَنِي
إلى أن يقول :

وَعَلِمْتُ أَنِّي فِي وَفَائِكَ سَابِقٌ فَسَبَقْتُ بِالنَّعَمِ الَّتِي وَقَّيْتَنِي
فَلَوْ أَنَّ آمَالِي بِقُرْبِكَ أَسَعَفَتْ مَا قُلْتُ بَعْدَ بَلَوِغِهَا : يَا لَيْتَنِي (٧)

ورغم استقرار الشاعر بعد ذلك في ظل المظفر ، فإننا نراه يشكو الظلم ثانية في قصيدة
طويلة موجهة إلى الوزير عيسى بن سعيد القطاع (٨) . وتبرز هذه القصيدة إحساساً بالعزلة
يعود إلى الظلم والخمول ، كما تبرز إهمال المؤسسة السياسية للشاعر وعدم قدرتها على تقدير
مواقفه . وتبدو صورة المجتمع متناقضة تغيرت فيها الموازين التي في ضوءها يقيم الفرد ؛ ففي
الوقت الذي ينتظر فيه الإنسان أن توضع الأمور في مواضعها الصحيحة ، وأن يُقَيَّم وفقاً
لأعماله ، يفاجأ بأن أعماله لا تحمل قيمة تمكّنه من الاستقرار ، وهو هنا أمام أمرين إما
الانسحاب الكامل المتمثل بالهجرة أو الجزئي المتمثل باللجوء إلى الانعزال . والأمر الثاني

(٦) القصيدة في الديوان ٣٦٣ — ٣٦٨ .

(٧) الديوان ، ص ١٨ — ١٩ .

(٨) عيسى بن سعيد القطاع ، وزير المظفر . قتله الأخير سنة ٣٩٧ هـ . انظر في ترجمته : محمد بن عبد الله بن الأبار (٦٥٨ هـ) ،
أعتاب الكتاب ، تحقيق صالح الأشر ، طبع مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦١ م ، ص ١٩٧ . ابن عذاري
المراكشي (٦٩٥ هـ) ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٣ تحقيق إ . ليفي بروفنسال ، بيروت (بدون تاريخ) ،
ص ٢٧ — ٣٤ .

أن يعبر عن حاله عدم الرضى عن طريق التنبيه والعتاب والنقد الخافت أو الرفض والتمرد ، وقد اختار ابن دراج الأمر الثاني فوجه رسالة عتاب وتنبيه إلى ابن القطاع قارن فيها بين نفسه والآخرين مشعراً الوزير بما يحسه من ظلم ووحدة ، ففي الوقت الذي أفنى فيه الشاعر عمره وقد شغل الدنيا بمذائحه للدولة ورجالها ، وجند نفسه كاتباً وشاعراً لخدمتها .. يجد نفسه في النهاية وحيداً لا يجد من يرعاه ، وانظر بعض أبيات هذه القصيدة :

أَلَمْ تَرَني يَوْمَ الرَّهَانِ مُبَرَّرًا	أمام الألى جاؤا إلى الحَظِّ مِنْ قَبْلِي
فَكَمْ بَاتَ هَذَا الْمَلِكُ مَنِّي مُعَرَّسًا	بِفَتَانَةٍ بِكْرٍ وَبِتُّ عَى الشُّكْلِ
وَمَوْلَى يَخِرُّ الْبَاسُ وَالْحَمْدُ سَاجِدًا	إلى سِيفِهِ الْمَاضِي وَنَائِلِهِ الْجَزْلِ
تَذَكَّرْنِي فِي سَاعَةِ الْعِلْمِ وَالنُّهَى	وَالسَّيْنِي فِي سَاعَةِ الْجُودِ وَالْبَذْلِ
أُوَاصِلُ آتَاءِ الْأَصَائِلِ بِالضُّحَى	وَزَادِي مِنْ جُهْدِي وَرَاحِلَتِي رَجُلِي
أَيُخْتَقِبُ الرُّكْبَانُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا	غَرَائِبَ أَنْفَاسِي وَأَلْقَاكَ فِي الرَّجْلِ ؟
وَيَنْتَقِلُ الشَّرْبُ التَّدَامِي بِدَائِعِي	وَهَيْهَاتَ لِي مِنْ لَذَّةِ الشُّرْبِ وَالنُّقْلِ ؟ !
وَضَيْقٌ بِحَيْثُ الظَّيْرِ تُدْعَى إِلَى الْقَرَى	يَضِيقُ بِهِ رَحْبُ الْمَبَاءَةِ وَالنُّزْلِ
ظَوُّ وَجْهِهِ الْأَرْضِ خِضْبٌ وَمَطْعَمٌ	وَعِيْمَانُ وَالْجُلُودُ يَفْهَقُ بِالرَّسْلِ (٩)

الفتنة البربرية وابن دراج : غربة واعترا ب

انقلاب المعايير:

يرى بعض الباحثين في ظاهرة الاعترا ب أن من أبرز مفاهيمه ومؤشراتَه تحلل المعايير أو ما أطلق عليه عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم مصطلح « الأنومي Anomi » ليشير إلى الموقف الذي تتفكك فيه المعايير الاجتماعية فلا تبدو مؤثرة ولا تؤدي وظيفتها قواعد لضبط سلوك الأفراد . وقد أوضح دوركايم في دراسته للأنومي أن المجتمع الذي وصل إلى تلك المرحلة يصبح مفتقراً إلى المعايير الاجتماعية المطلوبة لضبط سلوك الأفراد ، أو أن معاييرَه

التي كانت تتمتع باحترام أعضائه لم تعد تستأثر بذلك الاحترام الأمر الذي يفقدها سيطرتها على السلوك^(١٠) ، ويشير هذا المصطلح في بعض معانيه إلى الحالة التي «تفرق فيها القيم العامة في خضم الرغبات الخاصة الباحثة عن الإشباع بأية وسيلة»^(١١) . ويرتبط هذا المفهوم بما يطرأ على المجتمع من تغيرات حادة تبرز من خلالها معايير جديدة مفاجئة لا يستطيع أفراد المجتمع الاستجابة لها ، فتصبح هذه المعايير عاجزة عن السيطرة ، وبمعنى آخر: إن انتقال الإنسان من عصريته بالاستقرار وثبات القيم إلى عصريته بالاضطراب والفتن وتفكك المعايير يؤدي إلى حالة اغتراب شديدة لدى هذا الإنسان .

والسؤال الذي يطرح نفسه : كيف عملت الفتنة مطلع القرن الخامس الهجري في الأندلس على قلب الموازين وتحلل المعايير الاجتماعية وانعدام تأثير هذه المعايير بالتالي على سلوك الناس ؟ ثم ما دور هذا الانقلاب في اغتراب الإنسان ، وكيف انعكس كل ذلك في شعر ابن دراج ؟

١ — عاش ابن دراج القسطلبي عهدين مختلفين متناقضين تماماً ؛ إذ قضى طويلاً من حياته في ظل الخلافة الأموية ، وشهد في تلك الحقبة قمة النضج الحضاري في شتى ميادين المعرفة الإنسانية ، ويكفي أن نشير هنا إلى أن القرن الرابع الهجري في الأندلس يعد عصره الذهبي . وقد احتل الشاعر الأندلسي في تلك الفترة مكانة مرموقة ، بل كان الضمير الذي يعكس قمة هذا النضج الحضاري . وليس الهدف من هذه الدراسة مناقشة الاستقرار السياسي والازدهار الحضاري والأدبي في فترة الدولة العمارية ، ولكن ينبغي الإشارة إلى منجزات المنصور ليسهل مقارنة أجواء هذا القرن بجو الفتنة البربرية موضوع هذه المناقشة .

لقد حافظ المنصور ابن أبي علي حدود الخلافة الإسلامية في الأندلس ، بل وتجاوزها إلى غزو الممالك النصرانية والإقطاعيات الفرنسية كقطلونية وبرشلونة ، ثم اتجه إلى المغرب

(١٠) Emile Durkheim, Sui cide. A study in Sociology, Translated by John A. Spaulding and George Simpson (The Free Press, Macmillan Publishing Co., New York 1951). pp: 252-243.

وانظر قيس النوري ، الاغتراب ، ص ١٦ .

(١١) السيد علي شتا ، نظرية الاغتراب .. ، ص ٢٢٠ .

الأقصى فأخضع أمراءه ، ودانت له الأندلس واتجه صوب عاصمته ملوك الإيبان يقدمون له الولاء والطاعة . وكان من نتيجة هذه القوة أن استقر له الوضع في الداخل ، فعاش الناس ينعمون بالأمن والاستقرار . وإلى جانب الاستقرار السياسي عاشت الأندلس ازدهاراً اقتصادياً فريداً تعددت فيه مصادر الدخل ونشطت فيه وسائل الإنتاج من زراعة وتجارة وصناعة . وقد انعكس هذا الازدهار الاقتصادي على العمران ، فأنشئت القناطر وشيدت القصور وبنى الحاجب المنصور مدينة الزاهرة لتكون نظيراً لزهراء الناصر . وفي ظل هذه الأجواء نشطت الثقافة وازدهر الأدب ؛ فنظراً لإدراك القائد لقيمة الأدب في الدفاع عن الدولة ، ودوره في التأثير على الناس وتوجيه أفكارهم ، رعى الأدباء ، والشعراء بخاصة ، فأنشأ لهم ديواناً خاصاً تُجرى عليهم فيه الأرزاق حسب مراتبهم كما يذكر الحميدي (١٢) .

لقد عاش شاعرنا هذه المرحلة بكل أبعادها وواكب أحداثها وسجلها في الغالب شعراً . ثم انقضى هذا العهد بتولية الحاجب عبد الرحمن بن المنصور الملقب بشنجل في السنة التي توفي فيها أخوه عبد الملك (٣٩٩ هـ) . وقد خرج عبد الرحمن عن سياسة أبيه وأخيه ، فأجبر هشاماً المؤيد على إعطائه ولاية العهد ، وأساء السيرة في الناس وظلم وتجبر ، ممّا أعطى الفرصة للبيت الأموي للتمرد ، فما أنهى شنجل مدة أربعة أشهر حتى وثب عليه أحد أفراد البيت الأموي وهو : محمد بن هشام الملقب بالمهدي . ومن هنا تبدأ الأحداث المفجعة في الأندلس والتي عُرفت باسم «الفتنة» وانتهت بسقوط الخلافة نهائياً سنة ٤٢٢ هـ (١٣) .

(١٢) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ١٧٧ . وحول سيرة المنصور وأعماله ، انظر : علي أدهم ، منصور الأندلس الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٥٢ - ١٣٦ ومواقع أخرى .

(١٣) حول أحداث الفتنة البربرية وآثارها انظر : ابن بَسَام الشنتريني (٥٤٢ هـ) ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق ١ م ١ ، تحقيق د . إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، ١٩٨١ ، ص ٢٥ وما بعدها . ق ٣ م ١ ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٩ - ٢٣ . شهاب المرقى (١٠٤١ هـ) . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ ، م ١ ص ٤٢٦ - ٤٣٨ ، ٤٨٠ - ٤٩٠ . د . إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة ، ط ٥ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٣٣ - ١٣٨ . محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس : الخلافة الأموية والدولة العمارية ، ط ٤ ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٦٤٢ - ٦٥٥ . د . أحمد هيكال ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٩ .

د . حازم عبد الله خضر ، ابن شهيد الأندلسي : حياته وأدبه ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ٢٥ - ٢٣ . د . سعد إسماعيل شلبي ، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٣٠ - ٣٤ .

شهدت العاصمة قرطبة كما شهد غيرها من المناطق فواجع كان لها أثر عميق و بعيد المدى . وقد ساهم في تشكيل الصراع على الحكم بعد انهيار البناء السياسي فئات كثيرة : أفراد البيت المرواني بعضهم ضد بعض والبربر والفتيان العامريون والنصارى والعامّة .

لقد أحدثت الفتنة البربرية تغييرا واضحا في البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وعملت على قلب المعايير ، ولست مغاليا إن قلتُ إنّها تُعدُّ مثالا دقيقا للتغير السياسي السريع الذي أدى إلى تغير حاسم في « الأدوار » السياسية والاجتماعية فكان من الصعب أن يتكيف المجتمع مع الظروف الجديدة بالسرعة ذاتها .

فمن الناحية السياسية كان للبربر والصقالبة دور بارز في تحريك الأحداث والسيطرة عليها ، سواء مستقلين بأعمالهم أم داعمين لهذا الشخص أو ذاك من البيت الأموي ، وجمعني آخر لقد تراجع الدور العربي تراجعا ملحوظا في تلك الفترة . ورغم اعتماد سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين على البربر اعتمادا كبيرا ، ورغم سعيه الحثيث للاستئثار بالحكم ، فإنّه كان يدرك انقلاب الموازين ، ويدرك أنّ التحوّلات السياسية تجلب معها تغييرا في الأدوار ، فيصبح العبد سيّدا والغني فقيرا ... ويدرك فوق ذلك كلّ الدور الخطير الذي يلعبه البربر في حياة الأمة ؛ فقد كان يشعر في داخلته بحقد ضدهم ، مما جعله ينظم أبياتا « مستريحا بها إلى خواصه » ، « وقيل إنّها من أعظم أسباب فساد دولته » ، وهي قوله :

فَوَا عَجَبًا مِنْ عَبْشَمِي مُمْلَكٍ	بِرَّغْمِ الْعَوَالِي وَالْمَعَالِي تَبَرُّبَرَا
فَلَوْ أَنَّ أَمْرِي بِالْخِيَارِ نَبَذْتُهُمْ	وَحَا كَمُتُّهُمْ لِلسِّيفِ حَكْمًا مَحَرَّرَا
فَإِمَّا حَيَاةٌ تُسْتَلَذُّ بِفَقْدِهِمْ	وَإِمَّا حِمَامٌ لَا نَرَى فِيهِ مَا زَرَى (١٤)

وقد شعر المرتضي المرواني الشعور نفسه في وقت لاحق فقال :

قَدْ بَلَغَ الْبَرْبَرُ فِينَا بِنَا	مَا أَفْسَدَ الْأُخْوَالَ وَالنَّظْمَا
كَالسَّهْمِ لِلطَّائِرِ لَوْلَا الَّذِي	فِيهِ مِنَ الرِّيشِ لِمَا أُضْمَى
قَوْمُوا بِنَا فِي شَأْنِهِمْ قَوْمَةٌ	تَزِيلُ عَنَّا الْعَارَ وَالرَّغْمَا

إمّا بهما نملك، أو لا نرى ما يرجع الظرف به أغمى (١٥)
أمّا الفتيان العامريون (١٦) فكانوا عبيدا عند المنصور بن أبي عامر، فلما انقلبت الأمور في قرطبة قويت شوكتهم وتحكّموا في مصائر الناس، ولجأوا إلى شرق الأندلس فأقاموا دولهم، وفيهم يقول ابن بسّام: «كانوا عبّدان محنة، وجنّان فتنة، قلّ الناس فأمرؤا، وخلا لهم الجوّ فباضوا وصفروا، وغازطوا الجماعة بقرطبة مدّة أيامهم، ودرسوا أحساب الأحرار بأقدامهم، مستمتعين بدنياهم، غافلين من عادة الله في من جرى مجراهم، فرما سقطت الفتنة عليهم بزعماء الأنام، وزقت اليهم عقائل الكلام، فيعكفون منهم على رسوم ديار، وأصداء قفار، سواء عندهم سجع البلبل ورغاء الإبل» (١٧).

وقد أسرف بعض الفتيان في إذلال الناس وإزهاقهم بالضرائب، فأثرى هؤلاء على حساب طبقات الشعب التي لا حول لها ولا قوة، حتى بلغ الأمر عند كثير من الناس — فيما يصف ابن حيّان — أن لبسوا «الجلود والحصر»، وأكلوا «البقل والحشيش»، واقتصرت ردة فعل الناس على هجر قراهم، وكلما ازداد البطش ازداد الجلاء واستولى العامريون الصقالبة على القرى والضّياع (١٨).

وقد كان مبارك ومظفر العامريان يستغلان الناس ويستدعيان الرعاع، وقطاع الطرق وأرذال الناس لتولي مسؤوليات الإدارة، أمّا الأحرار فكانوا يستبعدون. وفي الوقت الذي أفنى المنصور فيه عمره يغزو الأعداء ويحافظ على حدود ملكه، نجد أنّ لبيا العامري يتعاون مع ريمّنده أمير النصارى ببرشلونه، مما دفع الأهالي إلى الوثوب عليه، ونجد أنّ مباركاً ومظفراً العامريين ينشغلان ببناء القصور والإسراف في الإنفاق واقتناء الجوّاري والابتذال في

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) أخلاط من الصقالبة من أصول ألمانية وإيطالية ومن أهل البلقان.. يؤتى بهم في البلاط ويربون تربية عربية إسلامية. محمد عبد الله عنان، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط ٢، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٦٩، ص ١٨٨.

(١٧) الذخيرة، ق ٣ م ١ ص ١٤.

(١٨) المصدر نفسه ص ١٩ - ٢٠، وحول الضرائب ص ١٥ - ١٦.

العطايا لمن لا يستحقونها من الدّهماء «لا هين عمّا كان يومئذ فيه الأمة ، كأنهم من الله على عهد لا يخلفه ...» (١٩) .

فمن الناحية الاقتصادية إذن شلّ الاقتصاد ، وتوقفت حركة التجارة ، وتفشى الغلاء ، وتدهور الوضع الزراعي والصناعي ، وكانت النتيجة أن «هلكت القرى والبساتين بقرطبة وعدمت المرافق» (٢٠) وقد كانت المحصلة الحتمية التشرّد والمجاعة وانتشار الأمراض ، وعجز الإنسان عن تلبية احتياجاته .

وقد كانت قُرُطْبَة أشدّ المراكز الأندلسية تأثراً بالمِحْنَة ، فقتل العديد من أهلها وبخاصة العلماء وأئمة المساجد والمؤذنين ، وقد أعمل البربر السيف في رقاب أهلها ، وتفرقوا في نواحيها «ينهبون ولا يبقون على شيء» . وقد تحدّث ابن بسام عن الفتنة وأشار إلى ما أحدثته من تشريد وتدمير وقتل يستوي في ذلك عامة الناس والعلماء ، «فأصبح الناس طرائد سيوف ، وجلاء حتوف ، قد خلعهم لئِن العيش على خشنه ، وأسلمتهم غفلات الزّمان إلى محنه ، يلودون بآفاق هذه الجزيرة المنكوبة» (٢١) .

٢ — عاش ابن درّاج هذه الأحداث وسجّلها وتأثيرها على نفسه وعائلته . فبدا من خلال هذا التسجيل مغترباً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى . وقبل الحديث عن مظاهر غربته واغترابه في هذه المرحلة ، أجد أنّه من المفيد إيجاز حديث ابن درّاج عن الفتنة ذاتها : رغم أنّ ديوان ابن درّاج يحفل بقصائد كثيرة يسجّل من خلالها ومن خلال تسجيل آثار الفتنة — أحاسيس الغربة دون الإشارة إلى الفتنة ذاتها في غالب الأحيان بشكل صريح ، فإنّه يظهر — بصرف النظر عن بعض الاستثناءات — طرفاً محايداً في الأحداث ، يتأثر ولا يؤثر ، وليس هذا الأمر غريباً ، فلم يملك الشاعر — كما سنرى — الوسيلة المناسبة التي

(١٩) المصدر نفسه ص ١٧ . وانظر أيضاً حول ليبب ص ١٦ . وحول مبارك ومظفر: ابن سعيد المغربي (٦٨٥ هـ) المغرب في حلى

المغرب ، تحقيق د . شوقي شيف ، ط ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

وابن عذاري ، البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٠ - ١٦٢ .

(٢٠) نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٢٨ .

(٢١) الذخيرة ، ق ٣ م ١ ص ٩ .

يستطيع من خلالها المشاركة ؛ ففي أحاديثه المقتضبة عن الفتنة لا نراه يشير بوضوح إلى مسببي هذه الفتنة ، ولعله كان يؤمن — كما كان غيره — بأن هذه الفتنة كانت حصيلة التّصارُع بين قوى سياسيّة كثيرة ، بعضها يسير دَفّةً الأمور الآن ، والآخر ينتظر دوره بين لحظة وأخرى ، ولم يشأ الشاعر أن يقع ضحية أيّ نقدٍ سياسي . وغني عن البيان أن ابن دراج عاش فترة مجده إبان الفترة العامرية ، فكان لذلك محبّا لها وفيها ومنتما ، ولكنه لم يتجرأ على التعبير عن هذا الانتماء في ظلّ الفتنة العمياء . والواضح أن الفتنة أفقدت الناس الانتماء إلى مسببيها . ومهما يكن فإنّ ابن دراج سكت عن تمجيد العامريين والإشادة ببطولاتهم مدة وجوده في العاصمة ، ولكننا نراه في وقت متأخر يلح إلى أيادي المنصور بن أبي عامر وشخصيته وذلك في قصيدة خاطب بها المؤمن عبد العزيز بن أبي عامر ببلنسية (٢٢) .

ولكي يتجنّب الشاعر المصاعب فانه يلجأ إلى الدهر و يلقي المسؤولية على عاتقه ، ويعده مسؤولاً عن تشرده ، وغربته ، كما يعده مسؤولاً عن الفتنة البربرية ، فالزمان في رأيه خالق للظروف التي قادت لِفِتْنَةٍ ، فهو يذنب وله آثامه وخطايا .

وَأَنْتَ غَفَرْتَ ذُنُوبَ الزَّمَانِ إِلَيَّ وَكَفَّرْتَ عُنْدِي أَثَامَهُ
فَإِنْ ذَكَّرْتَنِي لِيَالِي الْمُقَامِ لَدَيْكَ نَعِيمًا بِدَارِ الْقِيَامَةِ
فَكَمْ لُجَّ بَحْرٍ وَضَحْضَاحٍ قَفَرٍ تَمَثَّلَ لِي فِيهِ هَؤُلَ الْقِيَامَةِ (٢٣)
وقوله :

فَسَكِرْتُ وَالْأَيَّامُ تَسْلُبُ جِدَّتِي وَالذَّهْرُ يَنْسِجُ لِي ثِيَابَ سَلَابِي
سُكْرَيْنِ مِنْ خَمْرَيْنِ كَانَ خُمَارُهَا فَقَدَ الشَّبَابَ وَفُرْقَةَ الْأَخْبَابِ (٢٤)

(٢٢) الديوان ، ٤٧٥ - ٤٧٦ ، وعبد العزيز هذا هو حفيد المنصور ، تولى أمر بلنسية ، وطالت إمارته عليها حتى توفي سنة ٤٥٢ هـ .

الذخيرة ، ق ٣ م ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢٣) الديوان ، ص ١١٧ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

وقد لاحظ بعض المؤرخين أنَّ حياة ابن درَّاج في عصرين مختلفين كان لها أثر كبير في تشردّه ، وتعميق شعوره بالمحنة ، فابن حيَّان يعدّه «سباق حلّبة الشعراء العامرين» ، ثمّ ينتقل إلى الفتنة فيقول «وكان ممّن طوّحت به الفتنة الشنعاء ، واضطرتّه إلى النُّجعة ، فاستقرى ملوكها أجمعين ...» (٢٥) . ويعترف ابن درَّاج نفسه أنّ مأساته تكمن في أنّه عاش الفترتين المتناقضتين ، ويلمح بأنّ غربته تعود إلى التغيّر المفاجيء الذي طرأ على حياته ، ففي قطعة نثرية يتحدّث فيها عن فقره ، يلمس القارئ أنّ الدافع القوي لقلق ابن درَّاج ليس الفقر كحالة اجتماعية يعيشها ، وإنّما النقلة المفاجئة من جوّ اجتماعي وسياسي إلى آخر نقيض ، لوجاء الفقر نتيجة ظروف ذاتية مرحلية لَهَانِ الأمر ولما وقع الشاعر في الاضطراب ، وإنّما وجد الشاعر نفسه بين عشية وضحاها ينتقل من حالة غنى واستقرار إلى حالة فقر وتشرد ، وكلّ ذلك جاء نتيجة ظروف موضوعية خارجة عن إرادته (٢٦) . يقول ابن درَّاج : «يا سيدي ... وكنت قد نشأت في مَعْقِلٍ من العَفَا والوَفَر ، مُحَدَقًا بسور من الأمن والسَّتر ، حتى أرسل إليّ سلطانُ الفقر ، رسولاً من نُوبِ الدَّهر ، يريد استنزالي إليه ، وخضوعي بين يديه ، فأبيت من ذلك عليه ، فَعَزَّاني بكتائب من التَّوائب ، تسير تحت أُلوية المصائب ...» (٢٧) .

لم يحاول ابن درَّاج أن يؤرِّخ للفتنة ، فليس من شأنه أن يعكسها كما حدثت في الواقع وإنّما صوَّرها كما رآها هو مسجلاً تأثيرها عليه كما أحسّ هو هذا التأثير ، فجاء تعبيره ذاتياً مرتبطاً بحالته النفسية وليس تعبيراً موضوعياً ، ولكنه — مع ذلك — كان في تصويره معبراً عن إحساس جمعي : إحساس الناس بالظلم والاضطهاد والتشرد . ومرة أخرى فإنّ الدارس للديوان يلاحظ تسجيلاً لآثار الفتنة لا تركيزاً على جزئيات أحداثها . ففي قصيدة يوجَّهها الشاعر إلى عليّ بن حمّود بسبّته سنة ٤٠٤ هـ ، نجد تحليلاً لما وقع في قرطبة من قتل وانعدام للأمن واستباحة للدماء :

(٢٥) الذخيرة ، ق ١ م ١ ص ٦١ .

(٢٦) لقد أشار دوركايم الى شيء من هذا القبيل في حديثه عن الأنومي ، انظر

Robert Nisbet. The Social Bond, P. 274.

(٢٧) ملحق الديوان ، ص ٥٤٦ ، عن الذخيرة ، ق ١ م ١ ، ص ٤٥ - ٤٩ .

بَوَارِقُ ظُلُمَاءٍ طُلِمَ تُبِيحُ دُمَيَّ مِنْ جِمَيَّ أَوْ دَمَاءٌ مِنْ قَتِيلِ
فَأَذْهَلَ مُرْضِعَةً عَنْ رَضِيعِ وَأَنْسَى الْحَمَائِمُ ذَكَرَ الْهَدِيلِ
وَشَطَّ الصَّريخُ عَلَى ذِي الصُّرَاخِ وَفَاتَ الْمُعَوَّلُ ذَاتَ الْعَوِيلِ
فَمَا تَهْتَدِي الْعَيْنُ فِيهَا سَبِيلًا سَوَى سَبَلِ الْعَبَرَاتِ الْهُمُولِ
وَلَا يَعْرِفُ الْمَوْتُ فِيهَا طَرِيقًا إِلَى النَّفْسِ إِلَّا بِعَظْبٍ صَقِيلِ

ويُشَبِّه الشاعر في المقارنة بين ما كانت عليه الديار قبل الفتنة وبين ما أصبحت عليه بعدها. فقد كانت تضيّج بالحياة والحيوية، فأصبحت أطلالا خاوية على عروشها، تزفر فيها الرياح، ناهيك عن نساء جلون وقد ذرفن الدموع، وبدلن بالحزن والأسى من بعد «خفض النعيم»، وبالتشرد من بعد الاستقرار:

وَمِنْ دُونِنَا أَنْسَاتُ الدِّيَارِ نِهَابَ الْجِمَى مُوحِشَاتِ الطُّلُولِ
يُهَيِّجُ فِيهَا زَفِيرُ الرِّيَّاحِ مَدَامِعَ شَجْوِ السَّحَابِ الْمُخِيلِ
وَتَلْطِمُ فِيهَا أَكْفُ الْبُرُوقِ خُدُودَ عِرَاصٍ عَلَيْنَا تُكُولِ
ثُمَّ يَقُولُ :

فَمِنْ حُرَّةٍ جُلِيَّتْ بِالْجَلَاءِ وَعَذْرَاءُ نَصَّتْ بِنَصِّ الذَّمِيلِ
وَلَا حَلِيٍّ إِلَّا جُمَانُ الدَّمُوعِ يَسِيلُ عَلَى كُلِّ خَدٍّ أُسَيْلِ
فَبُذِّلْنَ مِنْ بَعْدِ خَفْضِ التَّعِيمِ بِشَقِّ الْحَزُونِ وَوَعَثِ السَّهُولِ
وَمِنْ قِصْرِ اللَّيْلِ تَحْتَ الْجِبَالِ بِهَوْلِ السَّرَى تَحْتَ لَيْلٍ طَوِيلِ
وَمِنْ عَلَلِ الْمَاءِ تَحْتَ الظَّلَالِ صَلَاءِ الْقُلُوبِ بِحَرِّ الْغَلِيلِ (٢٨)

وقد اجتمعت على المجتمع كله — فضلا عن الفقر والحاجة والتشرد — عوامل الخوف والوحشة واليأس، فلم يعد المواطن آمينا على نفسه وأولاده. وقد جعل انعدام الأمن، وفقدان القدرة على الدِّفاع عن النفس الإقامة في مكان واحد معادلا موضوعيا للموت... وقد عبّر ابن دراج عن كل ذلك، وبلغ الأمر به أن رأى الموت في كل خطوة يخطوها:

نُلَاقِي السُّيُوفَ إِذَا مَا فَزَعْنَا وَنُسْقَى الحَتُوفَ إِذَا مَا ظَمِينَا
فَطُوراً نَرَى العِيشَ ظَنّاً كَذُوباً وَطُوراً نَرَى المَوْتَ حَقّاً يَقِينَا

فأَيَّ حياة هذه ؟ لا يأمن الإنسان فيها على نفسه ، ناهيك عن شعور يتعمق يوماً بعد يوم بانعدام قيمة الحياة وعدم جدواها ، شعور بالضعف واعتراف بإلقاء السلاح :

أَهْمِينَا بِغُرَبَتِنَا أَمْ هُدِينَا وَمُثْنَا بِكُرْبَتِنَا أَمْ حَيِينَا
فَإِنْ يَعْجَبِ الدَّهْرُ أَنَّا صَبَرْنَا فَأَعْجَبُ مِنْ ذَاكَ أَنَا بَقِينَا (٢٩)

وإذا كان الناس قد استفتوا فقهاء المالكية في تعجيل صلاة العتمة قبل وقتها خوفاً من القتل (٣٠) فإن ابن دراج رأى الهروب أسلم الوسائل من شرفنة هجرت الناس قسراً ، وعُبد فيها الأسياد من دون الله ، واستشرى فيها القتل :

فِي جَاهِلِيَّةٍ فَتَنَةٍ عُيِدَتْ بِهَا دُونَ الإِلَهِ مُضِلَّةُ الأَرْبَابِ
تُسْتَقْسَمُ الأَزْلَامُ فِي مُهْجَاتِنَا وَتَسِيلُ أَنْفُسُنَا عَلَى الأَنْصَابِ
...

وَجَلَوْتُ فِي خَطْبِ الجَلَاءِ عَقَائِلًا قَصَّرْتُ عَنْهَا هِمَّةَ الخُطَّابِ
وَنَزْتُ بِهِنَّ عَنِ الأَرَائِكِ رَوْعَةً مَهَّدْتُ لَهُنَّ حُزُونَ كُلِّ يَبَابِ (٣١)

ومن قصيدة أخرى حول فتنة حافلة بالموت والظلم والتشريد وانعدام الروابط الاجتماعية :

أَعَالِي بِأَثْمَانِ النَّوَى بَائِعَ الرَّدَى وَأَصْعَفُ صَرْفِي نَاجِزَ الدِّمِّ بِالدَّمْعِ
لِخَطْبِ أبُوهِ البَغْيِ وَالْحَرْبِ أُمُّهُ وَدَرَّتْ عَلَيْهِ فِثْنَةٌ حَافِلُ الضَّرْعِ
فَوْشَكَانَ مَا شَدَّدْتُ حَيَزُومَ حَازِمٍ عَلَى كَسْبِ الدَّيْنِ بَائِنَةِ الصَّدْعِ
وَقُلْتُ لِمَغْنَى الدَّارِ : رَبْعَكَ وَالبَلَى وَلِلْمُورِ وَالْإِعْصَارِ : شَأْنُكَ بِالرَّبْعِ (٣٢)

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٣٠) د . احسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ١٣٧ عن الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٥ هـ) ج ٣ ص ٦٧ .

(٣١) الديوان ، ص ١٨٤ . وفيه (البيت الأول) : مَضَلَّةُ الأَرْبَابِ ، ولعل الصواب ما أثبت ، أي الأَرْبَابِ الْمُضِلَّةُ ؛ فقدّمت الصفة .

(٣٢) نفسه ، ص ٢٥٥ .

٣ - ابن دراج ومسؤولية الأسرة :

لم تكن غربة ابن دراج ومأساته ناجمتين عن حرصه على نفسه فحسب ، وإنما لتعلقه الشديد بزوجته وأولاده تعلقاً استحق معه أن يكون «شاعر الأسرة» أو شاعر «الحب الأسري» (٣٣)، وإذا كانت المصادر التاريخية تصف لنا ما حلّ بالشعب الأندلسي من قتل ودمار ورعب وهجرة قسرية ، فإنّ ابن دراج سجل لنا كلّ ذلك من خلال حديثه عن أسرته التي تكون شريحة اجتماعية أصابها ما أصاب الشعب العربي تلك الفترة، ولكنها وجدت من يسجل معاناتها وعذاباتها إبان الفتنة العمياء : فعندما عصفت الأحداث بالناس وشردتهم عن أوطانهم وتخلّى الصديق عن الصديق والمعيل عن العائلة ، وتخبّط الحكام تنافساً واقتتالا وأسرفوا في غيهم وبطشهم ، وجد ابن دراج نفسه وحيدا لتحمل المسؤولية ، فهزّته المأساة حتّى بلغ مرحلة اليأس والاكتئاب وهو يرى هذا الانقلاب الهائل الذي أصاب عائلته في الصميم ، فانتقلت من نعيم الاستقرار والوطن حيث الاكتفاء والسعادة والأمن إلى منازل غير منازلها أو إلى القفار والبراري تبحث عمّا يسدّ غورها ، فبات الجوع والخوف والمرض مهتدا لها بالموت في أية لحظة ، وإلاّ فركوب المخاطر والبؤس والشقاء . وقد عبّر ابن دراج عن معاناة أبنائه وزوجته ، وجاء شعره في هذا الجانب نابضا بالصدق والحرارة والعفوية ، فضلا عن رقة وسهولة وانسياب في التعبير :

ولا كَبَنِي سَبِيلٍ شَرَدْتُهُمْ	عن الأوطان قاضية القضاء
عواصف فِثْنَةٍ غَمَّتْ بِغَيْمٍ	بوارقهُ سيوفُ الإعتداء
فأَضَعَقَهُمْ بِرَاعِدَةِ الْمَنَآيَا	وأَمْطَرَهُمْ شَآبِيبُ الْفَنَاءِ
وطَافَ عَلَيْهِمْ طُوفَانُ رَوْعٍ	أَفَاضَ بِهِمْ إِلَى الْقَفْرِ الْفَضَاءِ
سِيْهَامُ نَوَى إِلَى بَرٍّ وَبَحْرِ	وَأَغْرَاضُ لِنُشْأَبِ الْبَلَاءِ
وَحُمُرَ الْمَوْتِ مِنْ خُضْرِ الْمَغَانِي	وَسُودَ الْبَيْدِ مِنْ بَيْضِ الْمُلَاءِ
وقد جَدَعْتَ أَنْوَفَ الْعِزِّ مِنْهُمْ	خُطُوبُ سُمْنَتِهِمْ أَنْفَ الْإِبَاءِ

وَأَلْبَسَهُمْ ثِيَابَ الدُّلِّ خَطْبٌ يَلِيهِمْ فِي ثِيَابِ الْكِبَرِيَاءِ
وَأَلْحَقَهُمْ بِلُجِّ الْبَحْرِ سَيْلٌ يَمُدُّ مُدَوْدَهُ فَيُضُّ الدَّمَاءِ (٣٤)

وعندما يعزل الإنسان قسرا ، وتعلن المؤسسة السياسية عجزها عن حمايته ورعايته وتأمين ضرورياته ، يقف الشاعر موقف البطل الذي يضحي بنفسه في سبيل أبنائه . فقبل مجيء الشاعر إلى سرقسطة ، ضاقت به الأرض وسدّت في وجهه المسالك ، فعاش «أفراخ القطا» ظمأ بما تحمله هذه الكلمة من دلالة ؛ ظمأ إلى الاستقرار والماء ، ورغم التجوال والتنقل فقد كانت الغاية بعيدة والمنايع جافة ؛ فيعيش الصبية في غربة كاملة : لا الضروريات متوفرة ولا التواصل الاجتماعي موجود ، فلم يجد الأب والأبناء إلا الرجاء والأمل والبحث عن الحامي :

ظَمَاءٌ وَمَا يَذْرَوْنَ فِي الْأَرْضِ مَشْرَبًا سِوَى كَبِيدِي الْحَرَى وَمُهْجَتِي الظَّمْيَا
(وَبَاتُوا) يُرَاعُونَ النُّجُومَ وَقَدْ رَأَتْ وَسَائِلُهُمْ إِلَّا حِفَاطَ وَلَا رَغِيَا
وَلَا خُلَّةٌ إِلَّا الْهَجِيرُ إِذَا التَّظَى فَكَانَ لَهُمْ جَمْرًا وَكَانُوا لَهُ شِيَا
وَلَا نَسَبٌ إِلَّا الثُّرَيَّا إِذَا انْتَحَتْ فَكَانَتْ لَهُمْ نِصْفًا وَكَانُوا لَهَا ثِيَا (٣٥)

و يُلِحُّ الشاعر على مبدأ التضحية معلنا أنه سيكون معوّضا لأبنائه عن كلّ ما يعانون منه ، من بعد عن الوطن ، وقساوة الناس ، وفقدان الأمن :

فَإِنْ نَبَتِ الْأُوطَانُ مِنْ بَعْدُ عَنْهُمْ فَلَا مَحْجَرِي حَجْرٌ عَلَيْهِمْ وَلَا حِجْرِي
وَأَنْ ضَاقَ رَحْبُ الْأَرْضِ عَنْ مُتَوَاهِمُ فَرَحِبُّ لَهُمْ مَا بَيْنَ سَخْرِي إِلَى نَخْرِي
وَأَنْ تَقْسُ أَكْبَادُ كِرَامٍ عَلَيْهِمْ فَوَا كَبِيدِي مَمَّنْ تَذُوبُ لَهُ صَخْرِي
وَأَنْ تَبْرَمَ الْأَيْسَارُ فِي أَرْمَاتِهِمْ فَأَخْبِبْ بِأَيْسَارٍ قَمَرْتُ لَهُمْ يُسْرِي

(٣٤) الديوان ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٣٥) الديوان ، ص ١٧٨ - ١٧٩ . والبيت الثاني فيه : ومأثوا يرَاعُونَ النُّجُومَ ومأثته يُمُونَهُ مَوْتًا إِذَا احْتَمَلَ مَوْنَهُ وَقَامَ بِكِفَايَتِهِ ، ومين فلان يُمَانُ ، فهو مُمُونٌ . اللسان طبع دار صادر بيروت (بدون تاريخ) : ٤٢٥/١٣ . والأرجح أنّها مصحّفة عن «باتوا» . وانظر حول أسرته وعدد أبنائه الديوان : ٨٨ ، ١٦٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

فَفَازُوا بِنَفْسِي غَيْرَ جُزْءٍ ذَخَرْتُهُ لَمَّا شَفَّتْ مِنْ خَطْبٍ وَمَا مَسَّ مِنْ ضُرٍّ
فَعَفَّوْا لَهُمْ جَهْدِي وَحُلُّوْا لَهُمْ مُرِّي وَصَفَّوْا لَهُمْ طَرْقِي وَ يُسِّرُهُمْ عُسْرِي (٣٦)

ومع ذلك فإنَّ الشاعر يعود فيعلن أحياناً عجزه وضيق ذات يده ؛ إذ لا يستطيع حتى إيواء أبنائه ، فيعود باحثاً عن الحامي ، معلناً الحاجة الماسة إلى الآخرين ، فيها هو يخاطب المنصور منذر بن يحيى في سَرَقُشْطَة مقارنة بين نفسه وبين المدوح :

وَقَدْ عَادَ أَبْطَالُ الْجِلَادِ يَعْطِفُهُ كَمَا عَادَ أَطْفَالُ الْجَلَاءِ بِعِطْفِيَا
وَقَدْ قَصَّصَتْ عَنْهُ رِمَاحُ عُذَاتِهِ كَمَا قَصَّصَتْ عَنْهُمْ رِيَاشُ جَنَاحِيَا
وَلَكِنْ أُوَاسِي بَيْنَ عَارٍ وَلَا بَسٍ أَقْلَصُ عَنْ ذِيَا لِأَثْنِي عَلَى تَيَا (٣٧)

ولا يملك الشاعر أحياناً إلا نفسه يقدمها لهم ، وإلا صدره يخنوع عليهم يوم تضيق صدورهم ، وكأنه بذلك يعترف بأنه معاق تحكمه ظروف خارجة عن إرادته ، فيفشل في تحقيق بطولة التضحية ، ويتكرر فشله ، وكلما فشل غير سيره ، فاعتاد الارتحال وعاش نتيجة لذلك في اضطراب وحيرة وقلق :

يُفْدُونَ نَفْسِي مِنَ الْحَادِثَاتِ وَمَالِي وَلَا لَهُمْ مِنْ فِدَاءِ
وَكَمْ ضَرَبُوا بِقِدَاجِ الْخُنُوِّ عَلَيَّ فَفَازُوا بِقِسْمٍ سَوَاءِ
وَقَدْ أَسْلَمْتَهُمْ سَمَائِي وَأَرْضِي فَلَا مَنْ ثَرَايَ وَلَا مَنْ ثَرَائِي
فِيَا ضَيْقَ ذَرْعِي لَهُم بِالزَّفِيرِ عَلَى ضَيْقِ ذَرْعِي بِضَيْقِ الشَّتَاءِ

...

فَمَا بِسَوَى حَرِّ تِلْكَ الصُّدُورِ يُوقَوْنَ مِنْ بَرْدِ هَذَا الْهَوَاءِ (٣٨)

(٣٦) الديوان ، ص ٥٥٧-٥٥٨ . وفيه : وصفوهم طريقي ، وليس في معاني الطرف ما يقابل الصفو ، والمرجح أنها طريقي ، والطرق «الماء المجتمع الذي خيض فيه» انظر اللسان : ١٦/١٠ .

(٣٧) الديوان ، ص ١٧٩ .

(٣٨) الديوان ، ص ٣٤٠ .

و يسرف ابن درّاج في وصف أثر الفتنة على أبنائه وما واجهوه بعد ذلك و يكرّر المعاني ذاتها بصور مختلفة (٣٩) ، وقد لاحظ الدكتور إحسان عباس تعلّق ابن درّاج بالصورة الواحدة والتعمّق فيها ، وعلّق على قصيدة قالها الشاعر في مدح مبارك ومظفر العامريين صاحبي بلنسية ، ومطلعها :

أُنسورك أم أوقدت بالليل نارك لباغ قراك أو لباغ جوارك

بقوله : « فترى الصورة في الأبيات السابقة هي النار أو النور وما يكتنف ذلك من ليل » ، و يرى الدكتور عباس أنّ هذا التكرار الذي يصل إلى درجة الإملال لا يشير إلى شغف بالصورة أو سعي إلى « تحقيق وحدة ما » وإنما هو دلالة استرسال . ويمضي الكاتب قائلاً : « فمن ذلك أنّه قد يشبه أبنائه بيوسف وإخوته والأحد عشر كوكبا فيسترسل مستخرجا كل الملابس التي تليق بالموضوع من قصة يوسف وإخوته ، فيقول :

أخوظمإ يَمْصُ حَشَاهُ سَبْعُ	وأربعةٌ وكُلُّهُمْ ظِمَاءُ
كأنْجُمِ يوسُفٍ عددًا ولكِنْ	برؤيا هذه بَرحِ الخَفَاءُ
خُطوبٌ خَاطَبَتْهُمْ مِنْ دَوَاهِ	بيوتُ الحَزْمِ فيها والذَّهَاءُ
وكلهم كيوسُفٍ إذ فَدَاهُ	من القتل التَّغْرُبُ والجَلَاءُ
وإنْ سَجُنُ حَوَاهُ فكم حَوَاهِمِ	بطون الفُلُكِ والقفرُ القَوَاهِ
وان أَقْوَتُ مغانِي العزّ منهم	فكم عَمِرَتْ بهم بئرُ خَلَاءِ (٤٠)

فأنظر إليه كيف استخرج من قصة يوسف كلّ ما ينطبق على بنيهِ ، أو وجّه المعاني التي في قصة يوسف ليمنحها لهم ، فذكر أنّهم أحد عشر كأنجم يوسف ، وكل واحد فيهم هو يوسف الذي نجته الغربة من القتل ، وإذا كان يوسف قد سجن ، فكل واحد فيهم قد مرّ في سجن السفينة ، أو وجد في القفر سجنًا ، وكل واحد منهم قد لجأ إلى بئر خلاء بعد

(٣٩) الديوان ، ص ٧٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٩ ...

(٤٠) وردت هذه الأبيات في الذخيرة ق ١ م ١ ص ٦٧ من طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٩ ووردت في الديوان مع اختلاف يسير في بعض أبياتها . الديوان ، ص ٣٢٧ - ٣٣١ .

مغاني العزّ الواسعة ...» (٤١) . فضلاً عن السبب الذي أورده الدكتور عباس ، فيمكن أن يفسّر ميل الشاعر إلى الاسهاب والتكرار في القصائد التي يتحدّث فيها عن مأساته وأبنائه — بسعي الشاعر إلى إبراز القضية الكبرى التي تلحّ عليه : الحاجة إلى الوطن والاستقرار ، ومأساة التشرد — بكلّ الوسائل الممكنة حتى لو أدّى به ذلك إلى الإملال . والحقيقة أنّ تكرار مواقف الوداع والحديث عن الأ ولاد يجسّد شعور ابن درّاج بالاغتراب ، هذا الشعور الناجم عن العجز عن إيواء أبنائه وتأمين الحياة الكريمة لهم . وكأنّه بهذا التكرار يحاول إقناع من يخاطبهم بجسامة الخطب وضيق ذات اليد . ويدفع — فوق ذلك كله — ما قد يُتّهم به من ابتذال واستجداء وإراقة ماء الوجهة — الأمر الذي نواجهه مراراً في ديوانه — وإضافة إلى ذلك فإنّ قصّة يوسف هنا تحمل مغزى الغربة والشعور بالظلم .

٤ — الشعور بالعزلة والاغتراب عن النفس :

يشير مفهوم العزلة إلى الحالة التي يفقد الأفراد فيها الانتماء إلى المجتمع وتحلّ العلاقات الثانوية الرسمية محل العلاقات الشخصية الودية . وقد يصل الفرد إلى مرحلة يكون فيها محاطاً بالآخرين ، ولكن يملكه في الوقت نفسه شعور بأنه بعيد عنهم نفسياً واجتماعياً ، وذلك لأنّه يشعر بأنّ التواصل الاجتماعي ضعيف أو أنّه مبني على أسس نفعية (٤٢) .

إنّ هذا المفهوم يعين في في توضيح جانب آخر من جوانب غربة ابن درّاج : فمن ناحية عامة يمكن القول إنّ الإنسان العربي في الأندلس في القرن الرابع الهجري كان يعيش في ظلّ نظام يكفل التضامن الاجتماعي الذي يعود في الأصل إلى صلات القرابة وإلى علائق الصداقة ، ناهيك عن اهتمام المؤسسة السياسية بتعميق التواصل الاجتماعي ، ففي ظل الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي والعلمي تعدّد قنوات الاتصال ، ولعلّ أبرز مظاهر التواصل الاجتماعي في فترة الدولة العامرية فيما يتعلّق بالمتقنين هو مجالس العلم

(٤١) د . إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٤٢) حول معنى الشعور بالعزلة ، انظر : حليم بركات ، الاغتراب والثورة في الحياة العربية ، ص ٢٢ ، قيس النوري ، الاغتراب ...

والأءب الٲى كاٲٲ ءعقء فى ءضرة المنصور بن أبى عامر للشعراء ولغيرهم؁ ءيٲ يٲم الاءٲكاك المباشر المٲسم بطابع العمق؁ وحيٲ يءرك المرء ءوره إءراكاً كاملاً ويعطى الفرصة لممارسة هذا ءور.

وعٲءما انفجرت الفتنة؁ ءفككت الروابط الاجتماعية؁ فشاعٲ الجريمة؁ وانعءمت الشقة بين الناس؁ وءءكم الخوف والانقسام والتملق والنفاق فى ءءيء هذه الروابط. فلم يعد الإنسان — كما يشير ابن ءراج — يجد أءداً يركن إليه؁ فانقلبت الأمور؛ ءلى الصءيق عن الصءيق وأصبح المءسوء سعيءاً بما يٲمناه ءاسءه؁ ءائباً بما ءخيرءه صاءبه. ولكن رءة الفعل عٲء ابن ءراج واضءة: فلم يشأ أن يشكل اسٲثناء بالنسبة للآخريٲ؁ بل ءاول أن يؤصل فرءيٲه و يعتزل من يءفوعنه :

وءرسٲ عرضى بالتوكل من نأى عٲى بءانبه نأىٲ بءانبى
ولقد رأىٲ الجء ليس ببالى؁ والعجز ليس عن الصراط بناكب
كم قد سءءٲ بما ٲمئى ءاسءى قءراً وءبٲٲ بما ءخير صاءبى (٤٣).

ورغم صءب ءياة وءرائها بالأءءاٲ فإن الشاعر لم يعد يشعر بأنه من الجماعة؁ وكأن المجتمع كله قد ءلى عنه؁ وكأنه يعيش وءيءا؁ ليس له من هذه ءءنيا الآ زوجٲه وأولاءه؁ وءتى هؤلاء مزقٲهم قساوة ءياة. فبءلا من الأٲس يعيش الشاعر وأهله بوءشة الغربء؁ يتواصلون مع عناصر الطبيعة: فكثيراً ما نرى ءرءاءاً للقفار والبرارى والبحار والأطلال..

وها هى زوجٲه ءعبّر عن ذروة الأسى والمرارة؛ ففضلاً عن فراق الوطن والعيش فى أرض غربءة؁ ءيٲ لا صءيق ولا أنيس؁ فإنها ءشكو الٲفرق فى منزل الغربء ذاته؁ وءشرع ءذكّر زوجها بالءصار المفروض على العائلة: ففي كل يوم ءعيش فى منزل مءٲلف يمزق وءءٲها؁ فإذا ضاقت بهم الصءراء اسٲقبلهم البحر؁ وأصبح البحر والصءراء بما فيهما من

دلالات الانعزال والتوحد بديلين عن «المقاصر والملاعب» بكل ما فيهما من تواصل وسعادة. وتسرف زوجته في التشاؤم ، وكأن الدنيا ضاقت باحتواء العائلة :

قالت وقد مزج الوداع مدامعاً	بمدايح وترائباً بترائب
أتفرق حتى بمنزل غربية ؟	كم نحن للأيام نُهْبَةً ناهِب !
في كل يوم مُنْتَوَى مُتْبَاعِدُ	يرمي حُشاشة شَمْلِنَا المتقارب
وثنت تُذَكِّرُ مُقْرَبَاتِ سفائن	عُذْنَا بها مِنْ مُقْفِرَاتِ سُبَايِبِ
أَيَّامَ تُؤْنِسُنَا فَلَا وَسْوَاحِلُ	عن آنسات مقاصر وملاعب
نَعَبَ الْغُرَابُ بها فطار بأهلها	سِرْبًا على مثلِ الْغُرَابِ النَّاعِبِ (٤٤)

و يتعمق إحساس الشاعر بالوحدة والعزلة كلما أحسَّ بأنَّ اقترابه من الناس يوسع الفجوة بينه وبينهم (٤٥) ، فيراهم بين مهمل غير آبه به ، أو مخادع وحسود . ومحضلة ذلك الشعور بالوحشة وعدم الألفة مع الآخرين :

بَعِيدٌ مِنَ الْوُطَانِ مُسْتَشْعِرُ الْعَدَى	غريبٌ على الأمواه مُتَّهِمُ الصَّخْبِ
أَقْلُ مِنَ الرَّثْبَالِ فِي الْأَرْضِ آلِفًا	وإنَّ كَانَ لِحَمِيٍّ لِلْحَسُودِ وَلِلْخَبِ
وَأَعْظَمُ تَأْنِيْسًا لِدَهْرِيٍّ مِنَ الْمُتَى	وَأَوْحَشُ مِنْهُ مِنْ فَتَى الْجُبِّ فِي الْجُبِّ (٤٦)

و يعبر الشاعر عن أحاسيس العزلة أصدق تعبير في قصيدة طويلة خاطب بها خيران العامري بالممرية سنة ٤٠٧ هـ ، ورغم احتمال وجود علاقة بين الشاعر وخيران في بلاط المنصور ، ممَّا قد يسعف الشاعر في تحقيق أهدافه ، فإنَّ بناء القصيدة بشكل عام يوحي بأنَّ توجه الشاعر إلى المربة كان نتيجة دوافع الإحباط والفشل ، وأنَّ التجاهل إلى خيران لم يكن إلاَّ تعبيراً عن حالة ضياع واضطراب وكأنَّه يحسُّ أنَّ جهوده الحاضرة لم تثمر شأنها في ذلك

(٤٤) الديوان ، ص ١١٠ .

(٤٥) ربَّما يتصل بهذا الظاهر مفهوم «الاعتراب بمعنى الموضوعية» ، والذي يشير إلى «نظرة الفرد للآخرين كشيء مستقل عن نفسه ، بصرف النظر عن طبيعة العلاقات التي تربطه بهم» . قيس النوري ، الاعتراب .. ص ١٤ .

(٤٦) الديوان ، ص ٩٨ .

شأن جهوده السابقة ، ولكن تكرار الفشل لم يمنع من المحاولة ، إنه يُمتني النَّفسَ بحياة مستقرة ، ويرى أنَّ الخير قادم ، وأنَّ خيران العامري سيوفي بالعهد ، بما له من عز وسلطان :

لك الخيرُ قد أوفى بِعَهْدِكَ خيرانُ وبشراك قد آواك عزُّ وسلطانُ

وحتى يقطع المدوح بمرارة العيش وجفاف العالم المحيط به يتحدث عن رحلته إليه ، هذه الرحلة التي تعكس أحاسيس العزلة والغربة ، والتي مزج الشاعر فيها بين مشاعر الذات والعائلة وبين عناصر الطبيعة المتصلة بالبحر ، فمنظر السفن في البحر وقت الغروب أشبه ما يكون بالغربان التي ذعرت ، ورغم تحريك الريح لها فهي أشبه ما تكون بالجبال الراسية ، وقد لجأ الناس إليها وأحالمهم الخوف أصناماً ... وقد بلغ الحزن « بشغاف القلوب » مبلغاً كبيراً ، فإذا غاض ماء البحر كانت دموعهم ماء يسير السفن ، وإن سكنت الريح استحال زفيرهم ريحاً يدفعها :

إليك شَحَنًا الفُلُكَ تهوي كأنها - وقد دُعِرَتْ عن مغرب الشمس - غربان
على لُجَجٍ خُضِرَ إذا هَبَّتِ الصَّبا ترامى بنا فيها ثبيرٌ وثهلانُ
مَوَائِلَ تَرَعَى في دُرَاهَا مَوَائِلًا كما غُبِدَتْ في الجاهليَّة أوثانُ
وفي طَيِّ أَسْمَالِ الغريبِ غَرَائِبُ سَكَنَ شغافِ القلبِ شَيْبٌ وَلَدَانُ
يردِّدَن في الأحشاءِ حَزْمَ مَصَائِبِ تزيد ظلاماً لَيْلَهَا وَهْيَ نيرانُ
إذا غِيَضَ ماءُ البحرِ منها مَدَدْنُهُ بِدَمْعِ عيونٍ يَمْتَرِيهِنَّ أَشْجَانُ
وإن سَكَنَتْ عَنَّا الرِّياحُ جَرَى بِنَا زفسيرُ إلى ذكرِ الأحبَّة حَسَّانُ

ويشعر الشاعر — كما يشعر أهله — بحالة الضياع واللاقدرة ، ويأتي التساؤل : وماذا بعد ؟ وتأتي الإجابة مؤكدة غربة الشاعر وأهله ، غربة يفسرها جوهر العلاقة بين الفرد من جهة والمجتمع والأرض من جهة أخرى . فقد بات واضحاً أنَّ المجتمع لم يعد قادراً على سدِّ احتياجات أعضائه ، وذلك لا تسامه بالتمزق وغياب الانضباط السياسي ، ويتبع ذلك كنتيجة حتمية إحساس الإنسان بفقدان الأمن . وقد جاء تعبير الشاعر عن كلِّ ذلك صريحاً

واضحاً : فتفترض العائلة الوصول إلى البرّ، ولكنها ستفقد عندها التواصل الإنساني ، فما من أحد يركن إليه ، ولا من مأوى يسكن فيه ، ولذا فإنّ الشاعر هنا يدين المجتمع أفراداً ومؤسسات فكان بذلك يعيش حالة حصار :

يَقْلُنْ — وموج البحر والهَمّ والدُّجى تَمُوجُ بنا فيها عيونٌ وآذانٌ —
الأهلُ إلى الدُّنيا معادٌ وهل لنا سوى البحر قَبْرٌ أو سوى الماء أَكْفَانٌ ؟
وهبنا رأينا معلّم الأرض هل لنا من الأرض مأوى أو من الإنس عِرْقَانُ (٤٧)

و يتصل بموضوع الإحساس بالعزلة اغتراب الشاعر عن نفسه ، فالعزلة تعمق الشعور بالعجز ، والشعور بأنّ ما يؤديه من أعمال أمر غير ذي جدوى ، إنّ حياة ابن دراج في ظلّ المنصور العامري وابنه عبد الملك منحتة شعوراً بالقوة وإحساساً بالمكانة والهمة العالية ، وقد بقي هذا الإحساس يتردد في نفس الشاعر وبخاصة عندما يلجأ إلى ماضيه ، فيستمدّ من كلّ ذلك قوّة تسعفه في المضي — ورغم هذا الإحساس فإنّ الشاعر يعترف بانحسار قيمته الاجتماعية ، ويعبّر بوضوح عن تناقض وسائله مع طبيعته . فان كان يرفض الدّل والخضوع ، فإنّ ظروفه قاسية أجبرته على الخنوع والاستجداء حتى أراق ماء وجهه في تلبية الحاجة :

فيا عبّرتي سُحّي لعلّي مُبَلَّلٌ بجريك ما أنزفتُ من ماء خديّا
ويا خلّتي إن سوف الغوث بالمُنَى ويا غلّتي إن أبطأ الغيث بالسُقيا
فَقُومَا إلى رَبِّ السَّمَاء فَأُسْعِدَا تَقَلَّبَ وجهي في السَّمَاءِ وَكَفَيَا (٤٨)

فضريبة الحياة باهظة الثمن ، وللحصول على الاستقرار في تلك الظروف لابدّ من التنازل عن الكبرياء . وقد أكره ابن دراج على التخلي عن ذاته تحملاً للمسؤولية ، فسلك ما لا يحب ، ومضى يبحث عن الحياة ، وتعمق مع ذلك شعوره بالكرامة المهدورة ، أو كما يحدث عن أبنائه :

(٤٧) الديوان ، ص ٨٧ — ٨٨ .

(٤٨) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٥٤ ط لجنة التأليف . و يقرأ البيت الأول في الديوان ص ١٨٠ كما يلي :

فيا عبّرتي سُحّي لعلّي مُبَلَّلٌ ببجريك ما أنزفت من ماء عينيّا

فَمَا شَرَبُوا مِاءَ الْأَرْضِ حَتَّى
وَلَا نَشَقُّوا حَيَاةَ الْعَيْشِ إِلَّا
وَلَا جَابُوا إِلَيْهِ الْقَفْرَ حَتَّى
وَلَا دَلَّ الزَّمَانُ عَلَيْهِ حَتَّى
وَلَا أَلْقُوا عَصَا التَّسْيَارِ حَتَّى
تَرَكْنَ وَجوهَهُمْ مِنْ غَيْرِ مَاءٍ
وَقَدْ خَلَعُوا جِلَابِيْبَ الْحَيَاءِ
تَجَاوَبَتِ الْحَمَائِمُ بِالْبُكَاءِ
حَسِبْتُ عَدَايَ قَدْ مَاتُوا بِدَائِي
عَفَتْ حَلَقُ الْبَطَانِ مِنَ اللَّقَاءِ (٤٩)

وبعبارة أخرى إذا كانت طبيعة الشاعر ترفض المهانة والذلّ، فإنّه قد خرج عن ذاته وناقض طبيعته، فاستجدي وفقدت جهوده بذلك قيمتها، إذ أنّ الاغتراب عن النفس يشير - في بعض معانيه - إلى «افتقاد المغزى الذاتي والجوهري للعمل الذي يؤديه الإنسان، وما يصاحبه من شعور بالفخر والرضى...» (٥٠) وابن درّاج يكرّر عدم رضاه عن وسائله في كثير من المواضع، فهذا هو يعبر عن أساءه الشديد في قصيدة يخاطب بها منذر بن يحيى التّجبيّي، ويرى أنّه إذا كان ضيق العيش قد أذله وقصّر من همته، فإنّ ذلك لم يمنعه من مدح «منذر بن يحيى» وكأنّ ذلك المدح لا يعدّ إراقة لماء الوجه:

وَأَنْ لَوِيتِ اللَّوَاءُ مِنْ شَأْوِ هِمَّتِي
فَلَمْ تَلَوْعَنْ مَدْحَ «ابن يحيى» مدائحي
وَأَلْحَقَ ذُلُّ الْعُسْرِ وَجْهِي بِتَعْلِيَا
بَأُطِيبَ ذِكْرِي فِي الْمَمَاتِ فِي الْمَحْيَا (٥١)

ولا تلبث الانتكاسات أن تضعف موقفه وتهزّه هزّاً، فيستشعر «الموت في الحياة»، وتخونه وسائله:

وَفَاحَتِ لِيَالِي الدَّهْرِ مَتِي مَيِّتاً
فَاخْزَيْنَ أَيَّاماً دُفِنْتُ بِهَا حَيّاً (٥٢)

ونظراً لتكرار فشله، وإنكاره الواعي للتذلل طمعاً في الحياة المستقرة، فإن ابن درّاج يتمنى الموت فراراً من هذه الحياة، يقول في أحد الكتاب:

(٤٩) الديوان، ص ٣٢٥.

(٥٠) قيس النوري، الاغتراب .. ص ١٩.

(٥١) الديوان، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٥٢) الديوان، ص ١٨٠.

ولله من عزمٍ إليك استقادني فأفرط في بُعد وفرط في قُرب
حياءٌ من الحال التي أنت عالمٌ بها كيف عاثت في سناها يدُ الخطبِ
إلى أن يقول :

وَشَحًّا بِبَاقِي مَاءِ وَجْهِ بَذَلْتُهُ لَعَلِّي أَقْضِي قَبْلَ إِنْفَادِهِ نَحْبِي (٥٣)

ويحاول الشاعر أن يُدافع عن موقفه ، فيعلن أن الذي يدفعه إلى الاستجداء بهذه الطريقة هو الخمول وتناسي الناس له ، ففي قصيدة يخاطب فيها أحد الكتاب يشعرا ابن دراج بالحزن العميق الذي يحسه : فلم يتوجه إلى الممدوح إلا بعد أن ضاقت به السبل ، وبلغت « النفس التراقي » ... جاء لعله يحظى :

بِمَا خُطَّ لِلْجَارِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَأَوْجِبَ لِلْمُسْتَضَامِ الْغَرِيبِ
ويقارن الشاعر بين عز الممدوح وذله هو منهيها قصيدته بالإشارة إلى أن الإيمعان في لفظه يعني ضياعه :

وَمَنْ يَمْنَعُ الضَّيْفَ رَحْبَ الْفِنَاءِ فَقَدْ قَادَهُ لِلْفَضَاءِ الرَّجِيبِ (٥٤)

٥ - المدح :

وما دمننا بصدد الحديث عن الاعتراب عن النفس ، فينبغي التأكيد على أمر على درجة كبيرة من الأهمية ، من حيث ارتباطه بهذا المفهوم من جهة ، ودلالته العميقة على انقلاب المعايير من جهة أخرى : وذلك هو مدح الشاعر لحكام الأندلس فترة الفتنة البربرية ، والذي يكشف — كما سنرى — ضعف الانسجام بين ما يقوله الشاعر وبين ما يبطنه ، بين ما يقوله وبين ما تتحدث عنه المصادر التاريخية ، فكما مدح الشاعر المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر ، مدح أقطاب الفتنة من المهدي إلى الفتيان الصقالبة .. وإذا كان الصديق في المدح يرتبط بمدى اتفاق الصفات التي يمدح بها الشخص مع المتعارف عليه في الواقع ، وما اعترف

(٥٣) الديوان ، ص ٩٨ .

(٥٤) الديوان ، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ ، ص ٤٧٣ .

به الآخرون ، فشتان بين مدح ابن درّاج للمنصور وابنه ومدحه للأمويين والصقالبة .

وابتداء يجب التقرير أنه رغم سعي ابن درّاج للتقرب من المنصور العامري ، ومحاولته إثبات وجوده الفني طمعا ورغبة في العطاء والمركز الاجتماعي ، فإن شخصية المنصور ذاتها كانت مدعاة إعجاب وبخاصة من قبل الشعراء الذين يمثلون ضمير الأمة . وقد التفت الدكتور محمود مكّي إلى هذه الناحية وأشار إلى التشابة بين مدائح المتنبي لسيف الدولة ومدائح ابن درّاج للمنصور ، ورأى — محققاً — أن جهاد الأمير الحمداني للدفاع عن الثغور الشمالية للدولة العربية بثّ في نفس المتنبي « شعوراً قوياً مضطرباً بالفتوة العربية » تماماً كما بثّ جهاد الحاجب المنصور للدفاع عن حدود الدولة العربية في الأندلس الشعور ذاته في نفس ابن درّاج . وإعجاب الشاعر بشخصية المنصور « إنّما كان صورة لإعجاب الشعب الأندلسي المسلم جميعه به ، فقد كان المنصور رمزاً لمجد الإسلام في تلك البلاد ، ذلك المجد الذي لم يقدر للمسلمين أن يستعيدوه مرة أخرى طول تاريخهم في إسبانيا بعد انتشار سلك الدولة العامرية ، وبعد أن أضاع ورثة هذه الدولة ما كان المنصور قد حرص على جمعه طوال عشرين سنة من الجهاد المتواصل والعمل الجبار والعزيمة التي لم تعرف نصبا ولا إعياء » (٥٥) .

ولم يقتصر إعجاب المسلمين بشخصية المنصور على قوّته وحنكته السياسية ، ومحافظته على حدود الدولة ، وإنما تجاوز ذلك إلى حرص القائد على سعادة رعيته والمحافظة على أمنها . فنقيض ما تحدّثنا به المصادر التاريخية من تغلب السوق وقطاع الطرق والمغامرين على أمور الناس في قرطبة أيام الفتنة ، تحدّثنا المصادر ذاتها عن سعي المنصور الحثيث إلى إشاعة الاستقرار والأمن والسعادة بين أفراد الرعية ولو كان ذلك على حساب صحته وراحته . يحدّث خادمه شعله : « قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب ، فقال : يا شعله ، الملك لا ينام إذا نامت الرعية ، ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة » (٥٦) .

(٥٥) مقدمة الديوان ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٥٦) نفع الطيب ، ج ١ ص ٤١٦ .

ومن هنا كان مدح ابن دراج للمنصور ممزوجاً بالحب والإعجاب بالقوة، فكرّس قلمه
ولسانه متغنياً بانتصارات ممدوحه، مسجلاً غزواته، معتزاً بالأمن والاستقرار الذي عاشته
الأندلس في عهد المنصور... فهو العين الساهرة على رعاية الحقوق:

فَهُوَ لِلْإِسْلَامِ غَيْثٌ صَائِبٌ وَعَلَى الْإِشْرَاكِ شَوْبُوبٌ بَرْدٌ
وهو:

وَسُلْطَانُ عَزٍّ فِي أُرُومَةٍ مَفْخَرٍ تَعَالَتْ عَلَى زُهْرِ النُّجُومِ مَرَاتِبُهُ
وَمَلْجَأُ أَمْنٍ الْمُسْتَضَامِ وَمَعْقِلٌ كَفَى الدَّهْرَ حَتَّى مَا تَنُوبُ نَوَائِبُهُ
وَسَيْفٌ مُحَلَّى بِالْمَكَارِمِ جَفْنُهُ مُعَوِّدَةٌ نَضَرَ الْإِلَهَ مَضَارِبُهُ
وقمة النصر:

جَاءَتْكَ خَاضِعَةٌ أَعْنَاقُهَا الْأُمَمُ مُسْتَسْلِمِينَ لِمَا تُمَظِي وَتَحْتَكِمُ
وَاسْتَرْهَنْتَكَ مَلُوكُ الْأَرْضِ أَنْفُسَهَا مَا اسْتَفْدَ الْبِئْسُ أَوْ مَا اسْتَدْرَكَ الْكَرَمُ
وقوله:

الْمَجْدُ مَمْنُوعٌ بِسَيْفِكَ عِزُّهُ وَالْأَرْضُ مَعْمُورٌ بِمُلْكِكَ دَارُهَا
زُهِيتْ بِذِكْرِكَ أَرْضُهَا وَسَمَاوُهَا وَجَرَى بِسَعْدِكَ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا
وعن العدل:

فَلَيْشُكَّرَنَّ الدِّينُ أَنْ أُولِيَّتُهُ عَظَفَ الشَّقِيقُ وَخُلَّةَ الْأَرْحَامِ
فَصَدَعَتْ عَنْهُ الْجُورَ صَدْعَةً ثَائِرٍ وَنَظَمَتْ فِيهِ الْعَدْلَ أَيَّ نِظَامٍ (٥٧)

وقد اعترف ابن دراج بكل ما فعله المنصور وأعلن أن شعره «رأسماله الوحيد» لا يمكن
أن يفني ويحبر عن العرفان بالجميل، فأظهر رغبة في التضحية بنفسه في سبيل المنصور:

لَا نَظْمُ أَشْعَارِي وَلَا نَثْرِي وَلَا صُحُفِي وَلَا جَهْدُ اللِّسَانِ وَلَا الْقَلَمُ
مِمَّا يَقُومُ بِنَشْرِ أَيْسَرِ مَا طَوَى صَدْرِي مِنَ الْإِخْلَاصِ فَيْكَ وَمَا كَتَمُ

(٥٧) الديوان، على التوالي، ص: ٣٧٠، ٣٧٨-٣٧٩، ٤٠٢، ٤٠٨، ٤٢٥. وانظر حول هذا الموضوع: ٣٩٥-٣٩٩، ٤٣٢-٤٣٤
والقصائد ذات الأرقام: ٤، ٧، ٨، ١٠٢، ١١١، ١١٨، ١٢٠، ١٢٦، ١٢٨...

ثم يقول :

وبما أفيئُ وقد حَشَدْتُ محامدي وأضنُّ عَنكَ بِبَذَلِ نَفْسٍ طالما
لأقلِّ جُزءٍ مِن نَدَاكَ فلم تَقُمْ ؟ أأُسِّرُ دونك بالحياة ؟ وكم يد
سُقِيَتْ بجودِ يَدَيْكَ أُنْدَاءَ الكَرَمِ ؟ أُمَكَّلُ وَجْهِي وَوَجْهَكَ بارزُ
لكَ بِشَرِّني بالحياة ؟ وكم ؟ وكم ؟ إنِّي إذن لكفُورُ أنْعُمِكَ التي
لشبا الأسيئة والهواجرُ تضطرم ؟ صرمتُ جبالَ الذَّلِّ مني فانصرم ! (٥٨)

أما الصورة المقابلة للمنصور بن أبي عامر فتشير إلى شخصيات لم تثر في نفس الشاعر أي إعجاب كما لم تثره في نفوس المسلمين ؛ فالشاعر يدرك ما أثارته الفتنة من القتل والتدمير ، كما يدرك ما قام به الحكام من استرضاء الإسيان فضلا عن الاستعانة بهم ، فبدلاً من توحيد الأمة ، يسعى هؤلاء إلى تفتيتها .. وبدلاً من حماية الثغور بدأوا يقايضون عليها مع الإسيان حماية لأنفسهم وتثبيتاً لسلطانهم ؛ ممّا أفقدهم احترام الشعب والمثقفين معا . ويكفي أن نقرأ ما كتبه مؤرخ معاصر للفتنة عن مثال من هؤلاء الحكام — وهو المستعين بمدوح ابن درّاج — لنرى إلى أي حدّ تردّى هؤلاء الحكام في مهاوي التنافس والطغيان والتآمر ، الأمر الذي لا يمكن أن يبعث على الإعجاب . يقول ابن حيّان بعد أن أشار إلى أنّ المستعين حكم ست سنين وعشرة أشهر : « وكانت كلها شدادا نكدات ، صعباً مشؤمات ، كريهات المبدأ والفتاحة ، قبيحة المنتهى والختامة ، لم يعدم فيها حَيْفٌ ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تمّ سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغيّر السيرة وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة واعتلاء المعصية ، وطعن الأمن وحلول المخافة : دولة كفاهها ذمّا أن أنشأها شائجة فقسعها أرمقئد ، وثبّتتها الجلالقة ، ومزقّتها الإفرنجة ، ودبرّها فاجر شقي ، ووزر لها خب دنيّ ، فتمخضت عن الفاقة الكبرى ... » (٥٩) .

والمستعرض لديوان ابن درّاج يرى أن قصائد المدح إبان الفتنة (قبل توجه الشاعر إلى سرّ قسطة بوجه خاص) إن هي إلّا انعكاس لحوف الشاعر من اضطراب الأوضاع ، وإن هي

(٥٨) الديوان ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٥٩) الذخيرة ق ١ م ١ ، ص ٣٦ .

إلا وسيلة إلى طريق الأمان الاقتصادي والنفسي . ولذلك فإن هذه القصائد — على كثرتها — لا تعدّ صورة صادقة للمدوحين ، بمقدار ما تعدّ وسيلة للحماية ، وإلا فكيف يقف الشاعر مادحا للمهدي محمد بن عبد الجبار ، ويرى أنه :

مهديّ أمةٍ أحمَدٍ وكرِيمِها وحليْمُها يَأوي إلى مأواكِ (٦٠)

ثم لا يلبث بعد فترة أن يمدح المستعين و يقول عن المهدي :

بأنّ قعيْدَ الشَّرِكِ قد ثلَّ عَرْشُهُ وأنّ أميرَ المؤمنينَ سُلَيْمَانَ (٦١)

لم يكن بوسع ابن دراج أن يحرك ساكناً أمام هذا الموج المتلاطم من الأحداث المتتابعة ، ولم يكن بوسعه أن يعبر عما يقتنع به ، فجاء مدحه هنا بين التهافت ، ومهما يكن فيمكن أن يحمل هذا التناقض في المدح على أنه دلالة اغتراب الشاعر عن نفسه ؛ لأنه يدرك — تماماً كما يدرك المؤرخ لهذه الفترة — أن ما وصف به ممدوحيه هو نقيض واقعهم ، وأنه بذلك فقد شعوره بالرضى والاعتزاز بما يقول (٦٢) . وإضافة الى ذلك فيمكن أن يحمل هذا التناقض على أنه دلالة حيرة وقلق ، وانعكاس لأوضاع مهتزة وقيم مضطربة . ويبدو هذا الفهم جلياً من النصوص الشعرية المطروحة ، كما يؤيده التاريخ الشعري لهذه الفترة ، فمن النادر أن نجد شاعراً التزم ممدوحاً واحداً ، ونذر نفسه للدفاع عنه وعن دولته . وهذا الأمر يكرّس بطبيعة الحال فقدان الانتماء والولاء لأية جهة من الجهات المتصارعة كما أشير سابقاً .

إنّ الخوف والسعي إلى الأمان والكفاية الاقتصادية هي البواعث للمديح ، ويشير الشاعر في قصيدته التي مدح بها المهدي إلى التشردّ والأسى . ولأنه يؤمن بأنّ الاستقرار

(٦٠) الديوان ، ص ٥٠ .

(٦١) الديوان ، ص ٥٤ .

(٦٢) يشير الاغتراب عن النفس في هذه الحالة إلى أنّ نشاطات الإنسان وممارساته لا تجلب له الرضى والسعادة ، فكأنه فقد صلته بذاته الحقيقة . وابن دراج يدرك ما يقول ويدرك حقيقة ممدوحية . وفضلاً عن ذلك فإنّ تذلل الشاعر واستجداءه — متأفٍ لطبيعته (انظر ص ١٦٥ من هذا البحث) . ولعلّ أقرب تحديد لهذا الضرب من هروب الاغتراب عن النفس — من منظور علم الاجتماع — هو أنّه «نمط من التجربة يرى الفرد نفسه فيه كما لو كانت غريبة عنه» انظر: قيس النوري ، ص ١٨ .

السياسي هو السبيل إلى الأمن والطمأنينة ، فإنه يركز الانتباه — في نهايتها — في القوة ، وطلب الحماية .

وأنا الشريدُ وظِلَّ عزَّكَ موئلي وأنا الأسيرُ وفي يديكَ فكَاكي
أدب أضاء المشرقين وتحسَّه حظَّ يئنَّ إليك أنَّة شاكٍ (٦٣)

وفي مدحه للمستعين يقف ابن دراج بدايات الفتنة ، ذروة انقلاب الموازين ، زمن السلب والنهب والقتل ، مهنئاً الخليفة الجديد ، مادحاً إياه بصفات لم يتصف بها . ولعل الشاعر وهو يفعل ذلك إنما كان يتمنى أن يعيش الخليفة هذه الصفات ويتصف بها . والواضح من هذه القصيدة — ومن غيرها — أن الشاعر يسم ممدوحه بسمات تحتاجها الأمة في وقتها الراهن : فالأمة فقدت هيبتها ، وتجراً الإسبان على انتهاك حرمتها ، وانعدم الأمن والعدل ، وراجت سوق القتل والنهب ، واستحالت الخلافة دمية يتصرّف بها البربر . . . ومع ذلك فإن الشاعر يلج على أخلاق القوة والمجد والعدل ، وكأنني به يتمنى أن تكون ، وهو بذلك يجسّد قمة الاغتراب ، اغتراب ما يجب أن يكون عما هو كائن . أخلاق غريبة عن الممدوح كما هي غريبة عن العصر ، وبذكرها تذكير واع بأن الاتصاف بها حلّ للمعضلات الموجودة فانظر إلى قوله :

بِه رُدَّ في جوِّ الخلافة نُورُهَا وقد أَظْلَمَتْ منها قصورُ وأوطانُ
وأُنقذ دينَ الله من قبضةِ العِدَى وقد قاده للشَّركِ دُلٌّ وإدْعَانُ
وقام فقامت للمعالي معالِمُ وللخَيْرِ أسواقُ وللعدل ميزانُ
وجدَّد للإسلام ثوبَ خلافةٍ عليها من الرحمن نورٌ وبرهانُ
ومن أبياتها :

وأُس شَمْلٌ بالتَّفرقِ موحش وَحَنٌ خَلِيْطٌ بالصَّبَابَةِ حِثَّانُ
وردَ جِمَاحُ الغيِّ من غَرْبِ شأوه وبُرْدَ قَلْبٍ بالحفيظة حَرَّانُ

وَعُرِّفَ مَعْرُوفٌ وَأُنْكِرَ مُنْكَرٌ وطار مع العنقاء ظلم وعدوانُ
وَأَعْمِدَ سَيْفُ الْبَغْيِ عَنَّا وَعُظِّلَتْ قيودُ وأغلالُ وسجُنُ وسجَّانُ
وَمُنَّ عَلَى الْمُسْضَعْفِينَ وَأُجِرَتْ مواعيد تمكينٍ وآذَنَ إِمَكانُ (٦٤)

ومرة أخرى فإن الشاعر يلج على صفات ثابتة تشكّل في النهاية استجابة لمتطلبات الأمة بشكل عام واحتياجات الشاعر بشكل خاص ، ففي مدحه لعلّي بن حمود مثلاً نلاحظ إيقاعاً ثابتاً على الكرم والقوة والعدل وإيواء الغريب ... الخ .

إلى المُسْتَجَارِ مِنَ الْمُسْتَجِيرِ إلى المُسْتَقَالَ مِنَ الْمُسْتَقِيلِ
إلى المُسْتَضَافِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ من المُسْتَضِيفِ الْغَرِيبِ الدَّلِيلِ
ثم :

فَسَمِّيَ جَدُّكَ «عَمْرَوُ الْكِرَامِ» بهشم الثريد زمان المُحُولِ
«وشيبة» سَاقِي الْحَجِيجِ الْكَفِيلُ بمأوى الغريب وقُوتِ الْخَلِيلِ
وَضِيْفٌ حَتَّى وَحُوشِ الْفَلَاةِ وأهدى القري لهضابِ الوَعُولِ (٦٥)
وفي مدح المرتضي :

مَسَرَّتْهُ مَأْوَى الْغَرِيبِ وَسَتَرَهُ وَلَذَّتْهُ خَيْرُ الْمَقْلِ وَرِفْدُهُ (٦٦)

وما يقال في هذه القصائد — من حيث عدم انسجامها مع الواقع — يقال في قصائده في مدح مظفر ومبارك ولييب العامريين وغيرهم (٦٧) .

وثمة فرق آخر بين مدائح ابن دراج للمنصور وابنه عبد الملك وبين مدائحه لعناصر الفتنة : وهو أن مطالع قصائده في الفترة الأولى تعكس القوة والثقة وفي ذلك يقول الدكتور

(٦٤) الديوان ، ص ٥٥ - ٥٩ . وانظر قصيدته في المستعين نظمت سنة ٤٠٣ هـ ص ٥٩ - ٦٦ .

(٦٥) الديوان ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٦٦) الديوان ، ص ٨٢ .

(٦٧) أورد ابن بسّام أبياتاً مدح بها ابن دراج مباركاً ومظفراً العامريين ، وأخرى في الفتح ابن أفلح ، وعلق بقوله : «فكان في أهدائه الكلام ، إلى أولئك العبيد اللئام ، كمن يهدي الهَتم إلى الصنم ...» الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٣ . وانظر قصائد ابن دراج في مدح العامريين ، الديوان رقم : ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ .

إحسان عباس ، بعد أن تحدّث عمّا عانى منه الشاعر من الحسد ومسؤولية العائلة والحاجة الى الرضى من المنصور - : «فلما أطمأنّ بجنبه (المنصور) إلى المهاد الدمث لم يعد بحاجة إلى كلّ هذه المعاني ، بل أصبح يعيش تجربة الشعور الجماعي بروعة الانتقال من نصر إلى نصر - أصبح جزءاً حيّاً نابضاً من ذلك التاريخ المجيد الذي كان يصنعه المنصور وابنه عبد الملك المظفر ، فالانتصارات متوالية ، وهذا عدو يؤسر ، وذاك يفد طائعا مواليا ، ولهذا حفلت قصائده بالاستبشار ، وارتفعت فيها النغمة الدينية ، ووصف أدوات الجهاد ... ، ولم يعد الموضوع الجليل بحاجة الى تمهيد من نسيب أو شكوى أو غزل ، فأخذ ابن دراج يهجم على موضوعه بثقة كبيرة ، ولهذا جاءت مطالعه على مثل :

هو النصرُ والتمكينُ أدرك طالبه	ولاحت وشيكاً بالسعود كواكبُه
شهدت لك الأبطالُ يوم كفاحها	والحرب بين غدوّها ورواحها
تبلّج عن إشراق عُرتك الصّبح	وأسفر عن إقدامك النصر والفتح
سر سار صنع الله حيث تسير	قدماً وساعد عزمك المقدور
النصر حزبك في الضلالة فاحتكم	واغضب لدين الله منها وانتقم
الله جارك ظاعنا ومقيما	ومُثيّبك التبجيل والتعظيما
أهلا بمن نصر الاله وأيدا	وحى من الإشراف أمة أحمد (٦٨)

أما في فترة الفتنة فنجد أنّ قصائد المدح تبدأ بمطالع تفيض بمشاعر المرارة والأسى والخوف ممّا يشير إلى أنّ هذه المدائح لا تعود إلى إعجاب بالبطولة ، وإنّما إلى سعي للاستقرار وتأمين الكفاية الاقتصادية والنفسية ، واليك بعض هذه المطالع :

بَلَّغْتَ عَبْدَكَ الْخَطُوبُ مَدَاهَا	يوم تبليغك النفوس مَنَاهَا
كم أستطيل تَضَلُّي وتَلُدِّي	وأروح في طَلَمِ الخطوب وأَغْتَدِّي
لعلّك يا شمس عند الأصيل	شجيت لشجوال الغريب الذليل

(٦٨) د . احسان عباس (مرجع سبق ذكره) ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ . وانظر المطالع في الديوان ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٤٢١ ،

هل تشنن غروب دَمَع ساكب من شام بارقة الغمام الصائب
أهل بالبن فانهلت مدامعه وأنس التفر فاستكت مسامعه (٦٩)

٦ - انعدام السيطرة : الوسيلة والغاية :

لابد من تأكيد حقيقة ناصعة وهي أن ابن دراج بلغ ذروة مجده أيام الدولة العامرية وبخاصة في عهد المنصور، وأن صعوده انطلق من دوره الأدبي : شاعراً أعجب بشخصية المنصور وواكب انتصاراته ؛ وكاتباً رسمياً كرس قلمه للتحرير في ديوان الإنشاء . وكانت غاية ابن دراج تحقيق الذات والعيش بحرية وكرامة ، وكانت وسيلته إلى ذلك لسانه وقلمه .. وقد تم له ما أراد . وفي فترة المحنة حاول ابن دراج أن يناضل بوسائله التي يملك ، لتأكيد ذاته ، وتأمين العيش الكريم ، فلم يدع فرصة إلا وانتهزها مبرزاً دور الأديب مؤكداً أن شعره هو السلاح الفعال الذي يملكه . وبالعش الشاعر في ذلك حتى أصبحت صفات الممدوحين ثانوية أمام هذا التمجيد لدور الشعر ؛ فشعره يحفظ مناقب الممدوح ويحملها إلى الآفاق شرقاً وغرباً . فكأنه لسان حال النظام السياسي ، والناطق الرسمي باسمه ... وقد ظهر هذا الاتجاه جلياً في الفترة الثالثة ، فترة حياته في ظلّ التجبيين بسرقسطة . الفترة التي عاش الشاعر فيها هدوءاً واستقراراً نسيين كما سيتضح من مناقشة اعترا به في هذه المرحلة .

يعتقد الشاعر إذن أنه يملك سلاحاً ، وأن هذا السلاح كفيلاً بأن يحقق الاستقرار والسعادة ، فيقول في المنصور منذر بن يحيى :

ولحق من أبقي ثناءك في الوري أن تستقر به لديك الدار (٧٠)

وفي بدايات حياته بسرقسطة يقول مؤكداً دور شعره :

وإن ينظروا كيف ازدهى مفرق العلأ بعقدي له تاجاً من الكلم العليا
أو إبد حالفن الليالي أنها تموت الليالي وهي باقية تحيا (٧١)

(٦٩) الديوان — على التوالي ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ١٠٩ ، ١٣٧ .

(٧٠) الديوان ، ص ١٥٨ .

(٧١) الديوان ، ص ١٧٥ .

وكلما فشل الشاعر في تحقيق طموحاته ، وأحس بتضاؤل مكانته الاجتماعية ، انبرى يذكر بسلاحه ودوره في حياة من يمدحهم ، فها هو يقر بأنه اندحرو وتراجع وأن المنذر بن يحيى جدّد له دوره :

ولقد جبرت برغم دهر ضامني ما أخلقت عصره من أثوابي
خلعاً رفعت بفخرها وسنائها ما ضاع من قدري ومن أدابي

ولذا فهو يشيد بمدوحه وينوّه بدور الشعر في إعلاء كلمته :

فلأهدين من طيب ذكرك في الوري وقّر الركاب ودخرة الركاب
ولأكتبن منها على صُحف العلا غرر الكتاب وغرة الكتاب
ولأجلون منها لأبصار النهي حرّ الخطاب وحرّة الخطاب
ولأتركن خلودها ونشيدها دين العصور وملة الأحقاب (٧٢)

ويبالغ الشاعر في تأكيد قيمة شعره ، فيشير إلى أنه ملأ الآفاق ببدايع لا تنافس وصلت سمعتها المشرق :

ورميّت آفاق العراق بشرد ليس العجائب عندها بعجائب
من كلّ ساحرة كأن رويّها في ألسن الراوين ريقه كاعب
ولكم وصلت تنائف بتنائف حتّى وصلت مشارقاً بمغارب
فكأتما قفنت إثر بدائي في الأرض أوناويت شأوغرائبي (٧٣)

والسؤال المطروح هنا : هل — حقاً — بلغ الشعر هذا المدى من التأثير بدايات الفتنة البربرية (٣٩٩ - ٤٠٨ هـ) ؟ ثم هل يمكن أن يعدّ الشعر وسيلة فعالة في تحقيق الأهداف ، أم أن انقلاب الموازين أصاب الشعر وقاد إلى تراجع دوره ؟ . يغلب على الظن أن الشاعر قد فشل في هذه الفترة — رغم السلاح الذي يملكه — في نيل الخطوة عند الكثيرين . إن ما

(٧٢) الديوان ، ص ١٨٦ .

(٧٣) الديوان ، ص ١١١ . وانظر حول شعره : ص ١٦٤ - ١٦٥ ، ١٦٩ - ١٧١ ، ٢٢٥ ...

عاشه ابن دراج من قلق واكتئاب لأكبر دليل على أنه لم يمتلك الوسيلة المناسبة لتحقيق أغراضه . ولا بد من التأكيد مجدداً على أن معيار القوة وبناء العلاقات الوطيدة مع المتنفذين في الأمور هي الوسائل الفعالة للحماية والاستقرار ، ويتضح هذا من الإشارات المتكررة في الديوان إلى القوة والشجاعة والصدقة ، ودور العلاقات الانسانية ...

و يبدو أن المؤسسات السياسية الجديدة لم تلتفت إلى الأدب وتغيره الأهمية كما كان في السابق . ويشير بعض الذين درسوا ظاهرة الاعتراب بشكل عام إلى أن النقص المعرفي أو الثقافي سواء من جهة المغترب نفسه أم من جهة المجتمع أو الطبقة المسيطرة عليه تقود في النهاية إلى حالة اعتراب للفرد^(٧٤) ويمكن أن يرى ذلك في حالة ابن دراج : إذ نراه — بعد فترة النشاط الأدبي في الدولة العامرية — يلجأ إلى الخمول لفترة قصيرة سببها غياب الشخصية المركزية الحامية للأدباء ، أو النقص الثقافي لدى الطبقة المهيمنة . وتعطينا الروايات التاريخية دليلاً بينا على ذلك يؤكد أنه أيضاً شعر ابن دراج نفسه : فقد مدح الشاعر خيران العامري بقصيدة نونية ذاع صيتها حتى عارضها بعض الشعراء — ومطلعها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران وبشراك قد آواك عزّ وسلطان

فماذا كان موقف خيران ؟ يحدث الحميدي : « ولما أنشد أبو عمر بن دراج خيران العامري قصيدته المشهورة فيه عند خروجه من البحر ، وبخسه حظّه في الجائزة ، بلغ الخبر أبا جعفر ابن جواد ، فقصده بخمسة عشر مثقالاً ، ودفعها إليه ، وقال له : اعذر أخاك فإنه في دار

(٧٤) الاعتراب في الدراما المصرية (مرجع سبق ذكره) ، ص ١٢ ، لعلّ النقص الثقافي لبعض مدحجي ابن دراج من الفتيان العامريين كمبارك ومظفر وخيران يعود إلى أنهم من أصول غير عربية ، فلم يتذوقوا الشعر أو يحتفلوا بالشعراء . ومن الواضح أن ابن دراج أخفق في انتزاع اعترافهم بدوره كشاعر ، فجاء اعتراجه هنا ناجماً عن الهوة التي تفصل بينه وبين مدحجه من الناحية الثقافية ويتضح ذلك جلياً إذا تذكرنا أن شهرة ابن دراج وسطوع نجمة في ظلّ الدولة العامرية جاء من أن شاعريته لقيت أذناً صاغية وقائداً ذواقه يحتفل بالأدب . وموقف خيران الآتي يؤكد أن ثمة فجوة بين طموحات الشاعر (الاستقرار والاكتفاء) ووسائله في تحقيق هذه الطموحات (الشعر) ، وكأنّ المؤسسة الحاكمة تقف حائلاً بين الفرد وتحقيق طموحاته بوسائله التي يملك ، وهنا يعترى الإنسان شعوراً بأنه لا يستطيع التأثير على المواقف الاجتماعية ، وأنه غير قادر على إنجاز الأهداف التي تتناسب مع قدراته . ويؤكد كثير من الباحثين أن هذه الحالة تشكّل واحداً من مفاهيم الاعتراب بمعنى « انعدام القدرة والسيطرة » أو العجز Powerlessness . انظر مثلاً السيد علي شتا ، نظرية الاعتراب ، ٢١٦ ، ٣٤٠ ومواقع أخرى ؛ وقيس النوري ص ١٥ . وتعدّ هذه الحالة أيضاً عند بعض الباحثين مظهراً من مظاهر تحلل المعايير وانقلابها أو ما اصطلح عليه بالأنومي أو اللامعيارية Normlessness . انظر قيس النوري ص ٢٢ .

غربة» (٧٥). فخيران — كما هو حال الكثيرين — لم يكن ممن يتذوقون الشعر أو يلتفتون إليه، فلم يكافئ الشاعر على قصيدته. وتذكر المصادر أنَّ موقف خيران أصبح معروفاً حتى ضرب به المثل، ويورد المقرئ قصيدة نونية للفقيه الغرناطي عمر الزجال يشير فيها إلى فعلة خيران:

ولا خيرَ أنْ تعجل كفاء قصيدتي كفاء ابن درّاج على مدح خيران (٧٦)

والواقع أنَّ الشاعر يؤكدُ وسيلتين لإثبات ذاته: اعتزازه بشعره، وإيمانه بقيمته، ثم احتماله للمصائب وتسجيل معاناته. ورغم ذلك فهو يشعر بتراجع دور الشعر ويعبر عن ذلك أحياناً بالإشارة إلى أنَّه منازع في كل شيء، حيث يستغلّ الوشاة هذا الجانب ويتخذونه سلاحاً ضده، لامعه، ويحاولون انتزاع أسبقيته حتى في شاعريته، فلا يجد ابن درّاج وسيلة إلا الإعلاء من شأن هذا الشعر، ففي الوقت الذي يدّعي فيه هؤلاء — فيما يقول — أنَّ الشاعر يتملّق الممدوحين وأنّه ليس صادقاً في مدحه، وأنه يبيع شعره «بالثمن البخس» — يرتفع صوت ابن درّاج منزلاً شعره منزلة القداسة، فيزعم أنَّ شعره ما كان يقال لولا منزلة الممدوح، وأنه لولا ذلك لجلّ أقل شعره عن «الشّم واللمس». ويمضي ابن درّاج يسرد أهمية هذا الشعر الذي «ينطق الخرس»، ويسمع من في أذنه وقر، ومن المحال أن يقف الشاعر صامتاً أمام من يقدمون العون له، يقول في يحيى بن حمود المعتلي:

شوارِدُ لولا حلمُ «يحيى» دنابها لجلّت أدانيها عن الشّم واللمسِ
فكيف بأنْ أرري بها فأبيعها — كما زعم الواشون — بالثمن البخسِ
وكم فتّقت في الأرض من وقرٍ مسمّع وكم أنطقت بالحمد من اللّسنِ خرّسِ

(٧٥) جذوة المقتبس، ص ٦٢٥.

(٧٦) المقرئ، نفخ الطيب، ج ٥ ص ٤٢. وأزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٩، أعيد طبعه بإشراف لجنة التراث الإسلامي مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ١٩٧٨، ج ١ ص ١٢٠.

ثَنَاءٌ عَلَى مَنْ رَدَّ رُوحِي رَوْحُهُ وَقَرَّبَ أَنْفَاسَ الْحَيَاةِ مِنَ النَّفْسِ
فَهَلْ أَنَا مُسَدِّ هَجْوِي لِمُنْعِمٍ كَسَانِي فَسَدَى مِنْ هَجَاءِ اسْمِهِ لِنَيْسِي (٧٧)

ويزداد شعور ابن دراج بتراجع دور شعره كلما ازداد إخفاقه وفشله ، ولكنه لا يستسلم بل تأخذ ردة فعله لشعوره باللاقدرة — شكل حيلة دفاعية تقوم على إقناع الآخرين بأهمية الذات ، والوعيد بالرحيل ، فإذا لم يستطع المجتمع تقدير أدبه وجهوده ، فإنَّ الشرق يُرَحَّب به :

فَإِنْ غَرَبَتْ أَرْضُ الْمَغَارِبِ مَوْتِي وَأُنْكَرْنِي فِيهَا خَلِيطٌ وَخِلَانٌ
فَكَمْ رَحَبَتْ أَرْضُ الْعِرَاقِ بِمُقْدِمِي وَأَجْزَلَتْ الْبَشَرِيَّ عَلَيَّ خِرَاسَانُ
وَإِنْ بِلَاداً أَخْرَجْتَنِي لِعُظْلٍ وَإِنْ زَمَاناً خَانَ عَهْدِي لَخَوَّانِ (٧٨)

ثم يعود الشاعر فيسجل اعترافاً صريحاً بتراجع أهمية الشعر الذي كان كفيلاً بإيصاله إلى منزلة رفيعة فيما مضى ، ولكنه الآن يقصر عن إنزاله المنزلة التي يستحق :

فَهَلْ قَلَمٌ خَطَّتْ بِهِ الْأَرْضُ كُلُّهَا نِظَاماً وَنَشْراً يُنْكَرُ الْقَطَّ وَالْبَرِّيَا
وَزَنْدٌ يُنِيرُ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ قَدْحُهُ جَدِيرٌ بَأَنْ يَسْتَلْحِقَ الْمَحَقَّ وَالْوَهْيَا (٧٩)

وعندما يصل الشاعر إلى قناعة أنَّ وسائله لا تتناسب مع حاجاته ، وأنَّ ثمة فجوة بين ما يتمناه وما يتوقعه ، فإنه يلجأ إلى المقايضة . في قصيدة يمدح بها منذر بن يحيى ، يحدّد الشاعر

(٧٧) الديوان ، ص ٣١٠ .

(٧٨) الديوان ، ص ٨٩ .

(٧٩) الديوان ، ص ١٨٠ .

مطلبه كما يحدّد وسائله وطاقاته ، فإذا كان المنصور جديراً بحفظ مكانة ابن درّاج ، ورعاية حقوقه ، فواجب الشاعر إذن هو تخليد ذكر الممدوح :

فَهُوَ الْجَدِيرُ بِأَنْ يُؤَكِّدَ عَقْدَهُ فِي حِفْظِ عَهْدِ وَسَائِلِي وَذِمَامِي
وَأَنَا الْجَدِيرُ بِأَنْ أَشِيدَ بِحَمْدِهِ نَغَمَاتِ أَوْتَارٍ وَشَذْوِ حَمَامِ
وَأُجَهِّزُ الرُّكْبَانَ طَيِّبَ ذِكْرِهِ زَاداً إِلَى الْإِنْجَادِ وَالْإِثْهَامِ
حَتَّى تَفُوحَ لَكَ الْجَنَائِبُ وَالصَّبَا بِثَنَائِهَا مِنْ مُعْرِقٍ وَشَامِي (٨٠)

إنّ التركيز على دور الشعر من قبل الشاعر وضالة هذا الدور كما تظهره معطيات العصر، ووقائع حياة ابن درّاج في فترة الفتنة ، واعتراف الشاعر بتراجع هذا الدور هو دليل على اغتراب الشاعر الناجم عن انقلاب الموازين وتحللها ، التحلل الذي يشير إلى أنّ «سعادة الإنسان لا يمكن تحقيقها بصورة مرضية ما لم تكن حاجاته متناسبة أو متوازنة مع الوسائل التي يملكها لإشباعها» (٨١).

ابن درّاج في ظل التجبيين

تبدأ حياة ابن درّاج في ظلّ بني تّجيب سنة ٤٠٨ هـ ، عندما توجه إلى سرقسطة مادحاً أميرها منذر بن يحيى التجبي الملقب بالمنصور . ويبدو من مطالعة قصائد ابن درّاج في المنذر وابنه يحيى أنّه وصل إلى مرحلة من الاستقرار النسبي ولعلّه رأى حياته في بلاطهم «صورة — مصغرة بلا شك — من حياته الماضية في رحاب العامريين» (٨٢) وقد اعترف الشاعر بأياديهم عليه ، ففي ظلّهم وجد المنزل والاستقرار ، وحقق في بلاطهم وتحت حمايتهم

(٨٠) الديوان ، ص ٢١٥ .

(٨١) قيس النوري ، الاغتراب (سبق ذكره) ، ص ٢٢ .

(٨٢) مقدمة الديوان ، ص ٧٢ .

بعضاً من طموحاته ، فاطمأن على نفسه وأولاده ، ولكنّه — مع ذلك — كان يعيش حالة اغتراب لفشله في الوصول إلى درجة مطابقة لماضيه أيّام المنصور العامري ، وفشله في الهروب من شبح الماضي الذي عاشه ذروة الفتنة .

فحاضر ابن درّاج يرتبط بماضيه ارتباطاً لا يكاد ينفصل ، فمن النادر أن نجد وصفا لحاضره دون حديث عن ماضيه إمّا متذكّراً أو مقارناً ، وفي كلتا الحالتين يبرهن الشاعر على اغتراب مقصود ، فلا يستطيع تذوق الحاضر والاستمتاع به ، لأن ماضيه السيء فترة الفتنة يدقّ عليه الأبواب ، ويعكّر الصفو... إنّ التجارب الأليمة أشدّ وقعا وأبعد أثراً في نفسه بحيث أنّه لا يستطيع الانفكاك من أسرها . وفضلاً عن أنّ ابن درّاج يتخذ من الالتفات إلى الماضي أدوات استثارة لاكتساب عطف من يتّصل بهم ، فإنّه يعبر عن أحاسيس الكآبة بعد أن اقتنع بأنّ الجرح الذي سببته الفتنة من فراق وتمزّق واستجداء وإراقة ماء الوجه لا يمكن أن يلتئم بمسرات الحاضر التي لا تعوّض ما عانى منه في الماضي القريب ، ناهيك عن ضآلة الاكتفاء الذي وصل إليه إذا ما قورن بالمجد الذي بلغ ذروته أيّام المنصور العامري ، عندما تربّع على عرش الشعراء . وباختصار يتّضح اغتراب الشاعر عن حاضره من مظهرين : الأوّل : تذكّر الماضي الحزين وربطه بالحاضر ؛ الثاني : تذكّر الوطن والحديث عن الماضي السعيد .

يمكن القول إنّ قصائد ابن درّاج في مدح بني تميم استغلّت للتعبير عن مدى تأثير الماضي المؤلم على نفس الشاعر ، فكثيراً ما يلجأ إلى المقارنة بين ما هو عليه الآن وبين ما كان عليه في الماضي ؛ فأعمال المنصور التجيبي جاءت إنقاذاً للشاعر وأهله من الهلاك ، جاءت بعد أن بلغت المأساة ذروتها والمعاناة من البؤس والتشرد أشدها :

وَعَوَّضْتَنَّا مِنْ رَاحَةِ الْمَوْتِ رَاحَةً سَكَنَّا بِهَا بَرْدَ الْحَيَاةِ وَظِلَّهَا
وَأَعْمَرْتُ مِثْلًا فِي ذَرَاكَ مَنَازِلًا تَفَقَّدْتُ مَثْوَاهَا وَأَرْغَدْتُ نُزُلَهَا (٨٣)

ومرة أخرى :

فَوَصَّلْتُ يَا «منصور» مِنَّا غُرْبَةً مَقْطُوعَةَ الْأَنْسَابِ وَالْأَسْبَابِ
وَوَقَّيْتَنِي رَيْبَ الْخُطُوبِ بِمِثَّةٍ جَلَّتِ الْيَقِينِ لُظُنِّي الْمُرْتَابِ
وَكَفَيْتَنِي لَوْمَ الزَّمَانِ بِأَنْعُمٍ كَفَّتِ الزَّمَانَ مَلَامَتِي وَعِثَابِي (٨٤)

وإذا مدح الشاعر المظفر يحيى بن منذر قصد المقارنة قصدا ، وسجل ما قدمه له ممدوحه :
فالتشرد والخوف والوحشة والغربة ... عوضت بالاستقرار والأمن والأنس والإكرام :

هَرَبْنَا إِلَيْكُمْ فَأَوْيْتُمُونَا وَخِفْنَا الْخُتُوفَ فَأَمْنْتُمُونَا
وَشَرَدْنَا السَّيْفَ مِنْ أَرْضِنَا سِرَاعاً إِلَيْكُمْ فَأَسَيْتُمُونَا
وَهَوَّنَ أَقْدَارَنَا الْإِغْتِرَابُ عَلَى كُلِّ خَلْقٍ فَأَكْرَمْتُمُونَا
وَأَوْحَشَنَا الدَّهْرُ فِي كُلِّ بَرٍّ وَفِي كُلِّ بَحْرٍ فَأَنْسَتُمُونَا
وَكَمْ قَدْ دَعَوْنَا غَرِيبَ الدِّيَارِ وَأَنْتَمُ عَلَى الْبُعْدِ لَبِيتُمُونَا
وَقَابَلْتُمْ دُونَنَا الْمُعْتَدِينَ وَنَحْنُ بِأَسْوَارِكُمْ عَائِدُونَ (٨٥)

وشعر ابن درّاج في هذه الفترة يفيض بالألم والحسرة ، مما يشير إلى أنّ الشاعر لا يزال يشعر بالغربة ولعله — رغم كلّ ما قدم له — لم يستطع الذوبان في جوّ سرقسطة بل بقي «كالشجرة المزروعة في غير بيئتها» ، وإلاّ فلماذا يكرّر اللجوء إلى الماضي إلى درجة الإسراف ؟ ، لو وصل الشاعر إلى الغاية في ظلّ بني تميم لأسدل الستار على ماضيه الحزين . فهيّا هو المظفر سنة ٤١٦ هـ يؤوّه ويرعاه ويضمن له ضروريات الحياة ، ولكنّه لا ينسى لحظة التجارب المؤلمة رغم مضيّ ما يزيد على ثماني سنوات ، فكأنّه بذلك يقصد المقارنة قصداً فيشعرنا بعمق الألم وهول المأساة ، ها هو يصف لنا مشقة الرحلة على ناقته السريعة وهو في طريقه إلى المظفر :

(٨٤) الديوان ، ص ١٨٥ .

(٨٥) الديوان ، ص ٥٢٤ .

فإن تُؤو منها يا «مظفر» غُرْبَةً فَنازحَةُ الأوطان مُؤَيَّسَةُ الرَّجْعِ
وإن أَعْلَقْتُ في حَبْلٍ مُلْكِكَ حَبْلَهَا فَحَبْلٌ مِنَ الأَحْبَابِ مُنْصَرِّمُ الْقَطْعِ
وإن أُخْصَبْتُ في زرع نُعْمَاكَ رَغِيهَا فَكَمْ قَدْ تَخَطَّتْ وادياً غَيْرَ ذِي زَرْعِ
وإن أَرْقَهْتُ في بحر جودك شِرْبَهَا فَمِنْ ظِمٍّ عَشْرِ في الهجير إلى تَشْعِ (٨٦)

ويبرز شعر ابن دراج جانباً آخر من الاغتراب ، يتصل بالغربة المادية عن الأرض منزلاً ووطناً ، ويتضح من هذا الشعر ارتباط الإنسان بالأرض ارتباطاً وثيقاً يتمخض الانفصال عنه عن معاناة وألم ، ويثير في النفس لواعج الشوق الدائمة . ورغم أننا لا نظفر بتحديد واضح لمفهوم «الوطن» في شعر ابن دراج ، فإن هذا الشعر يوحي بأن حنينه كان دائماً إلى الأرض التي كانت شاهداً على مجده وسعادته ، ولأن ابن دراج عاش ذروة مجده في قرطبة ، فإنها كانت دوماً محط نظره ، يَعَشُّهَا وَيَحْنُ إِلَيْهَا . ويلتفت الشاعر في حنينه إلى قرطبة إلى عناصر الطبيعة التي لم تغب عن ذاكرته يوماً ؛ بجبالها وسُهولها وأطيافها ، ونسيمها وغمامها وأمطارها .. إنَّ كلَّ عنصر ، وكلَّ مكان يدق عليه حاضره و يذكِّره بلحظات السعادة هناك ، فيندفع عندها متغزلاً بنسيم قرطبة ونجومها ، هائماً بجداولها ورياضها :

نجوم الصِّبَا أينَ تلك النجوم؟ نسيم الصِّبَا أينَ ذاك النسيم؟
أما في التَّخِيلِ منها ضياءُ أما في التنشُّقِ منها شميمُ
لقد شَطَّ رَوْضٌ إليه أجنُ وغارت مِياهُ إليه أهيمُ
أو انسُ يُضْبِحُ عنها الصِّبَا نواعِمُ يَنعَمُ منها النِّعَمُ

ويطيل ابن دراج في التذكر متعظشاً إلى الماضي ، مما يشير إلى أن سرقسطة بأجوائها ومياهها وطيورها لا يمكن أن تكون بديلاً عن الوطن .. ثم لا يلبث الشاعر بعد هذا الحنين إلى الأرض والماضي — أن يتحدث عمّا وصل إليه : فالذهر لا يسير على وتيرة واحدة ، والسعادة لا تكتمل .. فتبعد المنازل ، ويشط المزار ، ويتجرع مرارة الغربة :

(٨٦) الديوان ، ص ٢٥٧ ، وانظر حول ربط الحاضر بالماضي ، ص ١٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٥٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٥٦ ، ... ٥٠١

فيا عجباً لصروف الزمان
وكيف قضى حكم هذا القضاء
فنحن ديون النوى كل يوم
وتلك المعاهد بن رؤوما
بسير يقول الصفا الصم منه :
أما يستقال الزمان الكئود ؟
وها هو يخاطب الربيع فيقول :

واجنح لقرطبة فعانق تربها
عني بمثل جوانيحي وترايبي (٨٨)

وغالبا ما يأتي حنين ابن دراج الى موطنه ممزوجاً بالدموع ، ويزداد هذا الحنين كلما ازداد به الزمن بعداً عنه ، ويتضاءل حاضر الشاعر في كل لحظة يتذكر فيها ماضيه الجميل ، ولكنه يشعر مع ذلك بالأسى والحزن :

أهلّ بالسبين فانهلت مدامعه
وودّع الممنزل الأعلى فأودعه
يا معهداً لم يضع عهد الوفاء له
ولا ثنى عبراتي عن تذكّره
حسبي ضلوع ثوت فيها مصائبه
ثم يقول :

لله من وطن قلبي له وطن
لا يسأم الدهر من شوق يطالعني
يبلى وأبلى وما تبلى فجائعه
منه ومن زفرة مني تطالعه (٨٩)

ويسرف ابن دراج في القصيدة ذاتها متحدّثاً عن ماضيه السعيد ، وكأنّه بذلك يحاول أن يخفّف ما مرّ به من مصائب ، وبذلك يكون « الحنين إلى الماضي محاولة للانعقاد من

(٨٧) الديوان ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٨٨) الديوان ، ص ١٦٧ .

(٨٩) الديوان ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

وطأة الحاضر، وهو غربة عن الواقع. فحين يشعر المرء أن حياته قد قست عليه، فإنه يجد متنفساً بالهروب منها إلى الماضي... إذ يحس المرء بثقل الحياة ومآسيها فيهرب إلى الذكريات الجميلة، أو الحزينة. فالذكريات الجميلة تشعره بنوع من الاطمئنان إلى أنه إن كانت حياته الحاضرة قاسية، فإنه قد مرّت به أوقات عاش فيها حياة هائلة سعيدة، فترضى نفسه و يقرّ عيناً...» (٩٠). وها هو ابن دراج يستمتع بالحديث عن الماضي فيعيد ويسرف في التذكر، وكأنه يستحضر الماضي كاملاً فيعيشه مرة أخرى :

فطالما قَصَّرْتُ ليلي مقاصِرُهُ لَهوًا وما صَنَعْتُ صُبْحِي مَصَانِعُهُ
وطالما أَيْتَعْتُ حولي حَدَائِقُهُ والعيش غَضٌّ أُنِيقُ الرّوضِ يَانِعُهُ
وكم أَظَلَّ مَقِيلِي وَسْطَ جَنَّتِيهِ بَكُلِّ فَرْعٍ حَمَامُ الأَيْكِ فَارِعُهُ

ولا ينسى ابن دراج أن يربط بين ماضيه البعيد السعيد وبين حياته التعبة التي عاشها إبان الفتنة يقول وهو يتحدث عن جنات الوطن تسجع في أيكها الحمام :

إِنْ تُسْعِدِ اليَوْمَ أَشْجَانِي نَوَائِحُهُ فَكَمْ وَكَمْ سَاعَدَتْ شَدْوِي سَوَاجِعُهُ (٩١)

إنّ اجترار الماضي والحديث الطويل عنه، ما هو إلاّ تعبير عن الاستياء من الحاضر، والتعبير عن قصور الحاضر في إشباع حاجات الإنسان. إنّه دلالة واضحة على اعتراب الإنسان عن حاضره، ومحاولة للانفصال عنه والالتصاق بالماضي البعيد الذي يعتقد الشاعر أنّه وجد نفسه فيه. وإذا ما انتهى ابن دراج من الذكريات و«أحلام اليقظة» هزّته المسؤولية وأعادته واعياً إلى واقعه. ومن هنا نجده يتخلص من هذه الذكريات ليمدح المنصور التجيبي ملتمساً لديه الهدوء والاستقرار، واصفاً إياه بصفات البطولة والكرم والأنفة والقوة بما لا يختلف كثيراً عن مدائحه لغيره من الأمراء.

(٩٠) عبد الرزاق الخشروم، الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٢، ص ٢٤١.

(٩١) الديوان، ص ١٣٨، وقراءة البيت الأخير في الأصل «شجوى سواجعه» واقتراح محقق الديوان في الهامش ٣ ص ١٣٨ «شدوى» وهو اقتراح صائب وقد أثبتّه.

خاتمة :

يتضح من دراسة شعر ابن درّاج — فيما يتعلّق بالغرابة والاغتراب — ما يلي :

(١) انّ غربة ابن درّاج عبّرت عن نفسها عن طريق القلق ، والأرق ، والاكتئاب ، والشعور بالعجز والضياع وفقدان الأمل ، والعزلة . وقد برزت هذه المظاهر بشكل ضئيل في فترة الدولة العامرية ، وبلغت الذروة إبان الفترة الأولى من الفتنة (٣٩٩ - ٤٠٨ هـ) ثم تراوحت بين الضعف والقوة في فترة بني تميم . وقد سجلت كلّ مرحلة من حياة الشاعر نتيجة خاصة بغربته : فكان النقد الخافت والعتاب اللين أهم نتائج غربته في المرحلة الأولى (الدولة العامرية) . وكان الانسحاب المادي عن طريق الهجرة نتيجة من نتائج الفتنة البربرية ، بينما تجلّت نتيجة الغربة في فترة بني تميم بالانسحاب عن طريق اللجوء إلى الماضي .

(٢) أنّ أبرز عوامل غربة ابن درّاج واغترابه هو الفتنة البربرية وما ترتب عليها من هجرة قسرية وانعدام للأمن ، وشعور بالظلم ، ثم الشعور بالفجوة بين الماضي السعيد والحاضر ، الفجوة التي لم يسدها ما قدّم التّجبيّيون للشاعر وأهله .

(٣) ينبغي التأكيد على أنّ ابن درّاج لم يبحث عن الاغتراب في ظلّ الفتنة البربرية وقبلها ، فهو لم يشعر بفراغ روحي ليعتزل الناس ويرتحل ، ولم يصل إلى درجة المتصوّفين فيطلب الانفراد . وديوان الشاعر يخلو من مظاهر الابتذال والميل إلى اللهو والمجون كما يخلو من الإغراق في الروحانيات . ولذا فإنّ غربة الشاعر فرضت عليه فرضاً نتيجة ظروف موضوعية تمثّلت في الانقلاب السياسي والاقتصادي الذي عاشته الأندلس بداية القرن الخامس الهجري .

أنّ ابن درّاج لم يضق بالحياة ، وإنّما كان طالباً لها بمنطق ودونما إسراف ولكنّ الحياة ضاقت وقست ، لم يطلب شاعرنا الوحدة والعزلة ولم يسع إلى العيش في البراري والقفار

ولم يمل إلى السفر والتشرد ، وإنما طلب الهدوء والراحة والاستقرار .. لم يطمح ابن دراج في وطن مثالي ، وإنما رغب في الاستقرار في وطن كان شاهداً على مجده . ومن هنا فإن الشاعر لم يكن حالماً ولا مثالياً وإنما أوقعته الفتنة « في حبائل الاعتراب » وحتى حين استقر به المقام في سرقسطة فإنه لم يستطع الإفلات من الماضي .

(٤) وإذا كان ابن دراج لم يقصد مباشرة نقد الأوضاع القائمة ، ولم يحتج بشكل صارخ ضد الاقتتال والتنافس والتمزق ، فإن حديثه عن مأساته واضطرابه وقلقه وحيرته وعدم استقراره ، كان انعكاساً للقلق العام ، وتعبيراً عن حالة عامة أصابت المجتمع ، وبالتالي فإن شعر ابن دراج تعبير عن أوضاع مهتزة ، واعتراب جمعي يشعر به جميع الناس ، ولكن الأدباء كانوا أقدر من غيرهم على التعبير عنه وتسجيله .

(٥) أن السعي إلى الاستقرار النفسي والمادي والاهتمام بالأسرة — هي مفاتيح رئيسة لشخصية ابن دراج . يتضح ذلك من تنقل الشاعر بين المدن الأندلسية مادحا امراءها مسترفدا إياهم متحملاً في ذلك آلام السفر والفراق عن الوطن والأحبة ، والشعور بالكرامة المهدورة . وفي طموحات الشاعر ، وفشله في تحقيقها ، وشعوره بتخلي الآخرين عنه تكمن غربته . لقد أسرف ابن دراج في الحديث عما يعانيه من تشرد وبؤس وحرمان ، وألمح كثيراً إلى حاجة الإنسان إلى العدل والكفاية والأمن .. وعبر من خلال ذلك كله عن اختلال الموازين وانقلاب المعايير ، واهتزاز القيم التي تحكم سلوك الناس ، فكان شعره نموذجاً معبراً عن ضياع الإنسان العربي في الأندلس تلك الفترة ، وشاهداً بيننا على أثر الأحوال السياسية والاقتصادية في خلق الغربة والاعتراب بشكل عام .